كتابى
45
إميلى برونتى
مرتفعات ويذرنج
الجزء الثانى
www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

مطبوعات كتابى
إصدار جديد

عزيزى القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شىء تقريبا : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت! . . وهكذا اقترن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن « آن برونتى» من هذا الإنتاج رواية (أجنسى جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذرنج) . أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب ـ وهو مرض السل أو التدرن الرئوى ـ فماتت به « شارلوت » فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ ـ ١٨٥٥) ، وماتت به «اميلى» فى سن الثلاثين (١٨١٨ ـ ١٨٤٨) . . ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ ـ ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لاتقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به رواياتهن جميعًا . فقد كانت أسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاورث) بانجلترا . . وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، و إليزابيث ، و شارلوت ، و براتويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلى ، وأخيرًا «آن» . وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين ! بعد أربع سنوات ألحق الاب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية ـ هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى رواية (جين أير) باسم «الووود» . .

حامى مراد

مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة «إميلى برونتى»

الجزء الثانى

وصل ما انقطع ..

فى نهاية الجـزء الأول من هـذه الترجمة الكاملة لقصـة (مرتفعات ويذرنج) ، تركنا « كاثرين ايرنشو » ـ زوجـة « ادجار لينتون » ـ راقدة فى فراش المرض ، تفضى لخادمتها « نللى » بذات نفسها ، بعد أن اعتصمت بمخدعها واضربت عن تناول الطعام ثلاثة أيام ، على اثر المشادة العنيفة التى نشبت بينها وبين زوجها بسبب .. هيثكليف !.. وكانت مقدمات هذه الأزمة بين الزوجين قد بدأت حين اكتشفت كاثرين ان شقيقة زوجها ـ ايزابيلا ـ قد وقعت فى هوى هيثكليف ، فلما حاولت ان تنفرها منه بإظهار عيوبه ومساوئه لها بصراحة ، اهانتها العذراء الغريرة واتهمتها بالغـيرة والأنانية .. مما كان من كاثرين إلا أن انتقمت لكرامتها بأن افشت لهيثكليف السر الذى كان يجهله ، سر تدله ايزابيلا فى هواه !.. وانتهز الوضـيع الفرصة فدبر الخطة لاستغلال هذا الهوى الصبيانى وتشيقه ، بغيـة مصـاهرة غريمه الارسـتقراطى « ادجار لينتون » وإذلاله ! .. وذات يوم فاجـأ ايزابيلا فى الحديقة فقبلها .. ولمحته « نللى » فابلغت كاثرين بالأمر ! .. فثارت كاثرين فى وجهه وامعنت فى تانيبه . وانتهز ادجار الفرصـة ـ دون ان يقف على سبب المشادة ـ فامر هيثكليف بالخروج وعدم العودة إلى الدار مرة اخرى ! .. وعلى اثر انصرافه ثارت كاثرين على زوجها واتهمته بالانحـياز إلى حديثهـا مع هيثكليف من وراء

الباب ، ثم تظاهرت بالإصابة بنوبة صرع ! .. لكن « نللى » فضحت « تمثيلها » ، فانطلقت غاضـبة إلى مخدعهـا حيث اعتصمت به واضربت عن تناول الطعام ثلاثة أيام .. لكنها فى اليوم الثالث اضطرت إلى أن تطلب بعض الطعام . وحين علمت ان زوجها يقضى وقته فى غرفة المكتبة ، غـير مبال بقطيعتها ، صدمها إهماله إياها ، واصـابها بشـبه نوبة من الهـذيان وهواجس الخـوف من الموت والاشـباح .. ثم راحت تذكر « نللى » ببدء احداث الأسبوع المشئوم حين اعتصمت بمخدعها، وكيف داهمها قبيل الفجر كابوس مروع خشيت منه على عقلها .. كابوس رأت نفسها فيه وقد عادت سنوات إلى الوراء ، إلى يوم مات أبوها وهى بعد صبية فى الثانية عشرة ، فأقام اخوها « هندلى » ستارا بينها وبين لقاء رفيق صباها هيثكليف ـ الذى كان بالنسبة لها كل حياتها وكيانها ! ـ الأمر الـذى تاست منه الشعور بالبؤس والعذاب .. وصور لها الكابوس كانها تنام فى فراشـها القـديم بمنزل « مرتفعات ويذرنج » ، الفراش الشبيه بخزانة ذات فتحات مربعة ، من خشب البلوط ـ وهو الفراش الذى نام فيه مستر لوكوود ، مستأجر الدار، فى بداية القصة ـ فلما افاقت من الكابوس وجدت نفسـها فى مخدعها بقصر « ثرشـكروس جـرانج » حيث أغفت وهى جالسة على الأرض مستندة إلى رجل المائدة !

والآن تستطيع ان تتابع القراءة من حيث تركنا « كاثرين » تحدث « نللى » عن ذلك الكابوس :

« .. رأيتنى قد عدت صبية ، وكان أبى قد وورى التراب للتو ، وبدأ عذابى وبؤسى من ذلك الفراق الذى فرضه هندلى بينى وبين هيثكليف .. كنت قد تركت وحدى ، للمرة الأولى فى حياتى ، فلما أفقت من نعاس مزعج بعد ليلة حافلة بالبكاء والنشيج ، رفعت يدى لأزيح بهـا باب الخزانة المنزلق .. فإذا بها تصطدم بسطح المائدة ! .. وأفقت من رؤياى فجـأة لأجدنى متكئة على بسـاط أرض مخـدعى !.. وإذا بالأمى الماضية تضيع فى لجة بعيـدة الغور من اليـأس . وليس فى وسعى أن أفسر لك لماذا شعرت بالشقاء والتعاسة يحيطـان بى من كل جانب ، فلا بد أن ذلك كان شعورا وقتيا ، لأننى لا أكاد أجد له سببا أو مبررا .. ولكن خيل إلى كأن يقظتى قد انتزعتنى ، وأنا بعد فى الثانية عشرة ، من (المرتفعات) ، ومن كل حياتى ورفقتى المبكرة ، ومن كيانى كله ، كما كان لى هيثكليف فى ذلك الوقت .. وصيرتنى فجأة ، وبعنف ، إلى مسز لينتون ، سيدة « ثرشكروس جرانج » ، وزوجة رجـل غريب .. انه النفى والتشريد من كل ما كان دنياى وعـالمى .. ألا ليتـك تتصورين لحظة من الهاوية التى ترديت فيهـا . وبوسعك أن تهزى رأسك كما تشائين يا نللى ، ولكنك حقا قد ساعدت على عدم استقرارى ! .. كان ينبغى أن تتحدثى إلى ادجار . كان هذا واجبك حقا .. وأن ترغميه على أن يدعنى فى سلام وهدوء .. آه !.. اننى اشتعل بالنيران ! .. ليتنى أكون فى الخلاء الآن . ليتنى أعود فتاة صغيرة من جديد ، جريئة ، نصف متوحشة ، حرة مطلقة السراح ، أسخر مما يوجه لى من

إهانات ، ولا أجنى منها غضبا كشأنى الآن !.. لماذا تغيرت كل هذا التغير ؟.. لماذا تتدفع الدماء فى عـروقى فائرة ثائرة لمجرد سماع كلمات قلائل ؟.. اننى واثقة من اننى سوف أعود لحالتى الأصيلة إذا وجدت نفسى بين الأحـراش فوق هـذه التلال . افتحى النافذة ثانية يا نللى ، ودعيها مفتوحة على مصراعيها . اسرعى .. لماذا لا تتحركين ؟

فقلت : « لأننى لا أريد أن تصابى ببرد يقتلك .. »

ـ بل تعنين انك لا تريدين أن تهيئى لى فرصة للحياة !.. ومع ذلك فانى لم أصبح عاجزة عن الحراك بعد .. سـوف افتحها بنفسى ..

وهبطت من الفراش بسرعة ـ قبل أن استطيع منعها ـ فاجتازت الحجرة وهى تترنح فى مشـيتها ، ففتحت النـافذة واطلت منها وقد أحنت جسمها إلى الأمام غير مبالية بالهـواء المثلج الذى كان يمزق كتفيها العاريتين كسـكين حـادة .. ورحت أتوسل إليها ، ثم حاولت أن أستخدم القوة فى إرغامها على الرجوع عن النافذة ، ولكنى سرعان ما تبينت أن الحمى قد زادتها قوة ، حتى جاوزت كل ما لدى من قوة ! (وقد كانت فى الواقـع تحت تأثير الحمى ، إذ امتنعت بذلك من اعمالهـا اللاحقة وهذيانها الغريب) .. وكان القمر غائبا عن صـفحة السماء ، وكل شىء تحتنا يسبح فى لجة من الظلمة الحالكة . ولم يكن ثمة أى ضوء ينبعث من أى منزل قريب أو بعيد ، فقد أطفئت أضواء المنازل كلها منذ زمن طـويل .. أما أضـواء

(مرتفعات ويذرنج) فلم يكن يبين منها شىء البتة ، وبرغم ذلك فانها كانت تؤكد انها ترى بريقها ، إذ صاحت فى لهفة :

ـ انظرى !.. هذه حجرتى والشمعة مضاءة فيها ، والأشجار تتراجع امامها ! .. اما الشمعة الاخرى فهى فى حجرة جوزيف العلوية . ان جوزيف ما زال ساهرا ، اليس كذلك ؟.. إنه ينتظر حتى اعود إلى المنزل ليوصد البوابة . حسنا ، سوف ينتظر طويلا !.. فهى رحلة شاقة ، والقلب الكسير لا يستطيع قطعها فى يسر !.. ولا بد لنا من المرور بكنيسة (جيمرتون) لكى نقوم بهذه الرحلة .. لقد طالما تحدينا اشباحها معا ، وراهن كل منا الآخر على الوقوف بين القبور ، ودعوة الأشباح للظهور !.. ولكن هيئى راهنتك الآن يا هيثكليف ، فهل تجرؤ على الوقوف هناك ؟ .. لو انك فعلت فسوف استبقيك معى ، فما كنت لأرقد هناك وحدى . فليدفنونى على عمق اثنى عشر قدما ، وليهيلوا احجار الكنيسة كلها فوق قبرى ، فلن استريح حتى التقاك معى .. لن يقر لى قرار قط حتى افعل !

وتمهلت قليلا ، ثم استطردت وعلى محياها ابتسامة غريبة:

ـ إنه يفكر فى الأمر ، ويفضل لو ذهبت إليه ، بدلا من ان يأتى إلى .. ابحث عن طريقة لذلك إذن ! .. ولكن بعيدا عن فناء الكنيسة ! .. يا لك من بطىء متثاقل ! ولكن هدىء روعك ، فقد كنت دائما تتبعنى !

وإذ تبينت عبث مجادلتها ومعارضة اقوالها الجنونية ، فقد رحت افكر فى وسيلة استطيع الوصول بها إلى شىء اغطيها به او الفه حولها ، دون ان تتخلى قبضتى عن الإمساك بها (فما كنت لأمن لها وادعها وحدها بجوار النافذة الفاغرة فاها) .. وفى تلك اللحظة اجفلت إذ سمعت صرير اكرة الباب وهى تدور ، ثم إذا بمستر لينتون يدخل الحجرة .. فقد كان فى المكتبة فلم يبارحها إلا فى تلك الساعة ، وبينما كان يجتاز الردهة سمع حديثنا فاثار فضوله ، أو خوفه ، وارادان يعرف ما يحدث فى تلك الساعة المتأخرة .. فما كدت المح صيحة الدهشة التى تجمعت على شفتيه ، إذ شهد المنظر الذى طالعه ، وجو الحجرة القارس ، حتى هتفت قائلة ، لاحول دون انطلاق تلك الصيحة :

ـ اواه يا سيدى !.. ان سيدتى المسكينة مريضة ، وقد تغلبت على ، فلم اعد استطيع تهدئتها البتة .. ارجو ان تأتى وتقنعها بالذهاب إلى الفراش . انس غضبك يا سيدى ، لأنها من الصلابة بحيث لا يمكن تحويلها عما صممت عليه !

فصاح وهو يسرع إلينا : « كاثرين مريضة !؟ .. اغلقى النافذة يا ايلين .. كاثرين .. لماذا ؟ » .

وكف عن الكلام بغتة ، إذ كان منظر مسز لينتون المشعث ، وشحوبها الشديد ، قد الجم لسانه وشله عن النطق ، ولم يعد قادرا إلا على نقل نظراته بينها وبينى فى دهشة وارتياع .. فتابعت الحديث قائلة :

ـ لقد لبثت هنا كل هذه المدة ، تجتر احزانها ، لا تذوق طعاما ، ولا تنفس عن صدرها لمخلوق ، فلم تسمح لاحدنا بالدخول عليها إلا الليلة ، ولذلك لم يكن فى وسعنا ان نخبرك عن حالتها ـ إذ كنا انفسنا نجهلها ـ ولكن ارجو ان يكون الأمر بسيطا ..

وقد شعرت بأننى كنت اتملق بهذه العبارات فى ارتباك وتلعثم ، فنظر السيد إلى عابسا ، ثم قال فى صرامة : « اترين الأمر بسيطا ، يا ايلين دين ؟.. سوف يكون عليك ان تفسرى مسلكك إذ كتمت ذلك منى ، فيما بعد .. »

ثم اخذ زوجته بين ذراعيه ، وراح ينظر إليها فى الم واسى .. فلم يبد فى نظراتها ، فى بادىء الأمر ، ما ينم على انها قد عرفته !.. كانت نظراتها الشاردة لا تراه ولا تتبينه . ومع ذلك كانت النوبة الثائرة قد بدأت فى الهدوء ، فما ان تحولت عيناها عن الظلمة الخارجية الحالكة ، وبدأت تركز انتباهها فيه رويدا رويدا ، حتى عرفت من الذى كان يحوطها بذراعيه ، فقالت فى انتفاضة غاضبة :

ـ آه !.. هل اتيت يا ادجار لينتون ؟.. انك احد تلك الأشياء التى يجدها المرء دائما كلما كان فى غير حاجة إليها ، وعندما يحتاج إليها لا يجدها قط !.. واحسب اننا سوف يكون لدينا الكثير من الاحزان الآن ـ بل انا واثقة من ذلك ـ ولكنها لا يمكن ان تحول بينى وبين مسكنى الضيق هناك ! .. مسكنى ومستقرى وموئل راحتى ، حيث تسدر على ان

ارتد فيه قبل انقضاء الربيع . ولكنه لن يكون بين قبور آل لينتون ، تحت سقف الكنيسة ، وإنما فى الهواء الطلق ، فوق الروابى ، لا يعلوه سوى قائم من الحجر !.. اما انت فلك ان تذهب حيث يسرك الذهاب ، فاما أن تمضى إليهم او تأتى إلى !

فحص السيد بريقه وهو يقول : « ماذا فعلت بنفسك يا كاثرين ؟.. الم أعد شيئا بالنسبة إليك ؟ وهل تحبين ذلك المنكود هيثـ .. ؟ »

فصاحت مسز لينتون : « صه ! .. اسكت . لو ذكرت هذا الاسم فسوف انهى المشكلة فى الحال ، بوثبة من النافذة ! .. ان ما تلمسه الآن قد يكون لك ، ولكن روحى سوف تكون فوق قمة ذلك التل قبل ان تضع يديك على ثانية .. اننى لا اريدك يا ادجار .. بل لم يعد فى وسعى ان اريدك ! .. ارجع إلى كتبك ، فكم يسرنى ان لديك ما يسليك ويسرى عنك . اما انا ، فكل ما كان لك منى ، قد ذهب وولى ! »

فدخلت قائلة : « ان عطفا يهيم فى آفاق مجهولة يا سيدى ، لقد قضت الليلة بأسرها تهذى بكلام لا معنى له .. ولكن دعها تنل نصيبا وافرا من الراحة ، وقسطا كافيا من العناية ، وسوف تستعيد قواها وبرحها .. يجب أن تحذر ، من الآن فصاعدا ، من إغضابها .. »

فأجاب مستر لينتون : « لست اريد منك المزيد من النصائح . انك تعرفين طبيعة سيدتك ، ومع ذلك شجعتنى

على مضايقتها !.. ثم لم تضحى لى مرة واحدة عن حالتها طيلة هذه الأيام الثلاثة !.. الا ما اقسى قلبك ! إن شهورا من المرض ما كانت لتحدث بها مثل هذا التغيير ! »

فبدأت ادافع عن نفسى ، شاعرة بأن من الظلم ان الام بسبب المشاكسات الخبيثة التى يأتيها شخص آخر غيرى !.. فصحت قائلة : « لقد كنت اعرف ما فى طبيعة مسز لينتون من صلابة الراى وحب السيطرة والتسلط ، ولكنى لم اكن اعرف رغبتك فى تغذية طباعها الحادة الضارية والاستزادة منها !.. لم اكن اعرف اننى فى سبيل مرضاتها وتدليلها يجب ان اتغاضى عما يفعله مستر هيثكليف ! .. لقد اديت واجبى كخادم امينة عندما اخبرتك ، وهانذا اتقاضى الأجر اللائق بخادم امينة !.. حسنا ، إن ذلك يعلمنى ان اكون اشد حذرا ، وعليك فى المرة القادمة ان تجمع معلوماتك بنفسك !! »

ـ فى المرة القادمة التى تأتين لى فيها بقصة جديدة ، سوف تتركين خدمتى يا ايلين دين !

ـ احسبك لا تريد ان تسمع شيئا عن هذا الأمر بعد الآن يا مستر لينتون ؟ .. إذن فقد نال هيثكليف اذنك لمغازلة الآنسة ، وانتهاز كل فرصة يتيحها له غيابك ليأتى ويسمم افكار السيدة ضدك ؟

وعلى الرغم من حالة الذهول التى كانت فيها كاثرين ، فإن ذهنها كان مرهفا وعلى وعى بحديثنا ، إذ هتفت فى حرارة : « آه » لقد لعبت ايلين دور الجاسوس الخائن !.. ان ايلين

هى عدوى الخفى فى هذا المنزل .. انت ايتها الساحرة الشمطاء ، إذن فقد كنت تجمعين السهام لترمينا نحن بها ؟ دعنى .. دعنى ؛ سوف اجعلها تتحسر على ما فعلته .. سوف اجعلها تلقى جزاء جحودها ! »

وكانت عيناها تومضان ، وتتوهجان فى ثورة جنونية ، وراحت تناضل فى سبيل الخلاص من بين ذراعى لينتون .. فلم احس ميلا إلى البقاء حتى تنفذ وعيدها ، وعزمت على ان انشد معونة الطبيب ، من تلقاء نفسى وتحت مسئوليتى ، فاسرعت بمغادرة الحجرة ، ثم المنزل كله .. وفيما كنت اجتاز الحديقة إلى الطريق ، فى موضع كان سور الحديقة عنده يحمل خطافا مما تعلق فيه اعنة الجياد ، لمحت جسما ابيض اللون يتحرك حركة غير منتظمة ، لا شان للرياح فى احداثها .. وعلى الرغم من اننى كنت فى عجلة ، الا اننى تلبثت ريثما افحص ذلك الشىء ، حتى لا تخامرنى الهواجس فيما بعد فتثير فى خيالى الاقتناع بأن ما رايته كان عفريتا من الجان ! .. وكم كانت دهشتى وحيرتى عندما اكتشفت ، بطرف اللمس اكثر من الرؤية ، انه كان كلب مس ايزابيلا الصغير « فانى » ، معلقا فى الخطاف من رقبته بمنديل ، وفى الرمق الأخير من حياته !.. واسرعت بتخليص الحيوان المسكين ، وانزلته إلى الحديقة ، وكنت قد رايته يتبع سيدته إلى حجرتها بالطابق العلوى عندما اوت إلى فراشها ، فاخذنى العجب مما اتى به إلى الحديقة ، ومن ذلك الشرير الذى كاد ان يقتله .. وبينما كنت احل عقدة المنديل من حول الخطاف ،

بلغ مسامعى وقع حوافر جواد ينطلق بسرعة كبيرة عن مبعدة .. ولكن كان لدى من الشواغل التى تملأ تفكيرى ، ما جعلنى لا اعير صوت الجواد اهتمامها ، ولو انه كان صوتا غريبا فى هذا المكان فى الساعة الثانية من الصباح !

ومن حسن الحظ أن مستر كينيث كان يغادر منزله لزيارة مريض فى الريف ، عندما بلغت الشارع الذى يقيم فيه ، فما أن سمع روايتى عن مرض كاثرين لينتون حتى عدل عن طريقه وعاد معى فى الحال . وكان رجلا بسيطا صريحا لا يعرف المداورة ، فلم يخف شكه فى نجاتها من هذه الصدمة الثانية ، ما لم تكن اكثر خضوعا لتعليماته واوامره مما بدا منها فى المرة الأولى ، ثم استطرد يقول :

ـ إسمعى يا نللى دين .. انى لا استطيع ان امنع نفسى من الاعتقاد بأن هناك سببا خارجيا لما اصابها ، فما هذه الأحداث التى تمر « بالجرانج » هذه الايام ؟.. لقد بلغتنا انباء عجيبة هنا ، وفتاة قوية البنية مثل كاثرين لا يمكن أن تقع صريعة المرض بسبب شىء تافه ، كما ان هذا الطراز من الناس لا يمرضون بسهولة ، ومن العسير ان تصيبهم الحمى أو غيرها .. فكيف كانت البداية ؟

ـ سوف يخبرك السيد .. ولكنك تعرف آل ايرنشو تماما وتعرف حدة طباعهم ، التى بلغت مسز لينتون فيها اعلى مرتبة وبزتهم جميعا . وكل ما يمكننى قوله ان الأمر بدا بشجار حاد ، وقد اصيبت بنوبة شديدة بينما كانت تمر بعاصفة من الغضب والانفعال الشديد ، او هذه تصتها على

الأقل ، لانها فرت من الميدان عند احتدام العاصفة وحبست نفسها فى حجرتها ، ثم رفضت ان تتناول شيئا من الطعام ، وغدت الآن تتناوبها ساعات من الهذيان تارة ، ومن الاستغراق فيما يشبه الحلم تارة اخرى . وهى تعرف المحيطين بها ولكن عقلها يمتلىء بقدر عظيم من الأفكار والاوهام .

فقال كينيث متسائلا :

ـ احسب ان مستر لينتون سوف يأسف كثيرا ؟

ـ يأسف ؟.. إن قلبه سوف يتحطم لو اصابها سوء ! .. وارجو الا تثير فى نفسه القلق باكثر من القدر الضرورى !

فقال رفيقى : « حسنا ، لقد حذرته .. وعليه ان يترقب عواقب إهماله لتحذيرى ، الم تنعقد اواصر الود والالفة بينه وبين مستر هيثكليف اخيرا ؟ »

ـ إن مستر هيثكليف يكثر من التردد على (الجرانج) ، وإن كان ذلك يرجع إلى معرفة السيدة له منذ ان كان غلاما صغيرا ، اكثر من حب السيد لصحبته .. ولكنه فى الوقت الحاضر قد اعفى من مشقة الزيارة ، بعد ان بدر منه ما نم على طموح مزعوم إلى يد مس لينتون .. ولست اعتقد أن احدا سوف يسمح له بزيارة البيت بعد ذلك ثانية ..

والقى الطبيب بسؤاله الثانى ، فقال :

ـ وهل قابلته مس لينتون بالاستخفاف وعدم الاكتراث ؟

فاجبته فى إحجام من متابعة الحديث فى هذا الموضوع :

ـ إنها لا تطلعنى على اسرارها ..

ـ كلا ، فهى فتاة ماكرة لا تطلع احدا على سرها ، ولكنها بلهاء حقا .. فقد سمعت من مصدر يوثق بكلامه انها كانت فى الليلة الماضية ـ ويا لها من ليلة ! ـ تتمشى مع هيثكليف فى الحقول الممتدة خلف منزلكم اكثر من ساعتين .. وكان يستحثها ويلح عليها الا تعود إلى المنزل ثانية ، بل ترافقه على ظهر جواده وتفر معه !.. وقد اخبرنى محدثى انها لم تستطع استمهاله إلا بعد ان عاهدته بكلمة الشرف على ان تستعد لذلك فى اول لقاء لهما بعد ذلك . أما متى يكون ذلك ، فان محدثى لم يسمعهما يحددان موعده .. ولكن عليك ان تنذرى مستر لينتون حتى يتخذ حيطته جيدا !

وملأتنى هذه الانباء بمخاوف جديدة ، فسبقت كينيث ، واسرعت اعدو عائدة إلى الدار . وكان الكلب الصغير ما زال ينبح فى الحديقة ، فتخلفت لحظة ريثما افتح له البوابة ، ولكنه بدلا من الاتجاه نحو باب المنزل انطلق يعدو هنا وهناك ويتشمم العشب ، وكان على وشك ان يهرب إلى الطريق لو لم امسك به واحمله معى إلى الداخل .. وقد تحققت شكوكى عندما صعدت إلى حجرة ايزابيلا ، إذ وجدتها خالية ! .. ولو اننى ذهبت إليها منذ ساعات قليلة ، فربما كان مرض مستر لينتون قد منعها من الإقدام على هذه الخطوة الطائشة ، ولكن ما الذى يمكن عمله الآن ؟.. كان هناك احتمال ملفيف فى إدراكهما إذا اقتفى اثرهما فى الحال ، ولكنى لم اكن استطيع تتبعهما بنفسى ، أو اجرؤ على إيقاظ العائلة جميعا ، وإشاعة الفوضى والاضطراب فى المنزل كله .. وكذلك لم يكن

فى وسعى ان ابوح بالأمر للسيد الذى كانت نكبته الحالية تشغل كل افكاره ، ولم يبق فى قلبه متسع لحزن جديد .. فلم اجد خيرا من ان امسك لسانى وادع الأمور تجرى فى مجراها . وإذ كان كينيث قد وصل ، رافقته إلى حجرة السيدة ـ وقد انقلبت سحنتى ـ لاعلن مقدمه . وكانت كاثرين وتتئذ تنام نوما مضطربا ، إذ كان زوجها قد املح فى تهدئتها ، وتخفيف ثائرة نوبتها ، ووقف عند طرف الوسادة يرقب كل تبدل يطرأ على اساريرها التى تعبر عن الم شديد ..

وبعد ان فحص الطبيب الحالة بنفسه ، اعرب عن امله فى الوصول إلى نتيجة طيبة إذا استطعنا ان نحيطها دواما بجو من الهدوء والسكينة . وقد افضى إلى بأن الخطر الداهم لم يكن فى موتها ، بقدر ما كان فى إصابتها بخلل دائم فى قواها العقلية !

ولم يغمض لى جفن فى تلك الليلة ، وكذلك مستر لينتون .. بل لم نذهب إلى فرشنا أو نحاول النوم قط . حتى الخدم استيقظوا قبل موعدهم المألوف بكثير ، وراحوا يتحركون فى المنزل بخطى خفيفة مسترقة ، ويتبادلون الكلام همسا كلما مر بعضهم ببعض خلال قيامهم بمهامهم . كان كل من فى الدار مستيقظا يقوم بعمله ، إلا مس ايزابيلا ، فراحوا يتهامسون عن نومها العميق ويعجبون منه !.. بل لقد سأل اخوها عما إذا كانت قد استيقظت من النوم ، وبدا متلهفا على وجودها ، وقد ساءه انها لم تبد شيئا من القلق على زوجة اخيها .. وكنت ارتعد خشية أن يبعث بى لاستدعائها ، ولكن حدث ما كفانى

مشقة أن أكون أول من يعلن خبر فرارها : فان إحدى الخادمات ـ وهى فتاة طائشة كانت قد ذهبت إلى (جيمرتون) فى الصباح الباكر لتحضر شيئا من البلدة ـ اسرعت ترتقى الدرج ، مبهورة الأنفاس ، فاغرة الفم ، واندفعت إلى داخل الحجرة ، صائحة :

ـ آه !.. رحماك يا رب !.. ماذا سيحل بنا بعد ذلك ؟.. سيدى .. سيدى .. إن سيدتنا الصغيرة ..

فبادرتها زاجرة ، وقد اشتد بى الغضب من ضجيجها :

ـ صه !.. كفى عن هذه الجلبة !

وقال مستر لينتون : « اخفضى صوتك يا مارى .. ماذا هنالك ؟.. وما الذى الم بسيدتك الصغيرة ؟ »

ـ لقد ذهبت !.. ذهبت !.. وصديقك هيثكليف هو الذى فر بها!

فصاح ادجار ذاهلا ، وهو ينهض من مقعده فى انفعال شديد :

ـ هذا ليس صحيحا !.. بل لا يمكن أن يحدث قط !.. ما الذى انبت هذه الفكرة فى رأسك ؟.. وانت يا ايلين دين ، اذهبى وابحثى عنها . هذا أمر لا يمكن تصديقه .. بل لا يمكن ان يحدث !

وكان وهو يقول ذلك ، قد سار بالخادم العجول نحو الباب ، وعاد يسألها أن تبين له الأسباب التى تجعلها تؤكد هذا الفرار .. فغمغمت تقول متلعثمة : « لماذا ؟.. لقد

التقيت فى الطريق بالغلام الذى يحضر لنا اللبن ، فسألنى عما إذا كانت المتاعب قد ثارت فى (الجرانج) ، وحسبته يقصد مرض السيدة ، فاجبته بالإيجاب ، وعندئذ قال : « اظنكم أرسلتم من يتلقى إثرهما ؟ » ، فحملقت فيه فى دهشة ادرك منها اننى لا اعرف شيئا عن الحقيقة ، وذكر لى كيف ان سيدا وسيدة توقفا عند حانوت الحداد ، على بعد ميلين من (جيمرتون) ، ليصلحا حدوة جوادهما ، بعد منتصف الليل بقليل .. وكيف نهضت ابنة الحداد لتستطلع أمرهما خفية ، فعرفتهما على الفور .. ولاحظت أن الرجل ـ وكان هيثكليف بلا ريب ، فان أحدا لا يخطىء معرفته ـ قد دس فى يد أبيها جنيها ذهبيا اجرا له على عمله . وكانت السيدة تلف باقة المعطف حول وجهها ، ولكنها طلبت جرعة من الماء ، وبينما كانت ترشفها ، سقطت باقة المعطف فرات الفتاة وجهها جليا وعرفتها . وكان هيثكليف يمسك عنان الجواد بكلتا يديه وقد انطلقا به فى سرعة عظيمة ، بالقدر الذى تسمح به وعورة الطريق ، وهما ينعطفان القرية فى سيرهما . ولم تقل الفتاة شيئا لأبيها ، ولكنها نشرت الخبر فى (جيمرتون) كلها هذا الصباح !

واسرعت انقضى الأمر فى حجرة ايزابيلا ، من الناحية الشكلية ، ثم عدت لأؤيد رواية الخادم . وكان مستر لينتون قد رجع إلى مقعده بجوار الفراش ، فلما احس بعودتى ، رفع ناظريه نحوى ، ثم خفضهما ثانية ، بعد أن قرأ فى وجهى

معنى ما علاه من وجوم ، واخلد إلى الصمت ، فلم يصدر امرا او ينبس بكلمة واحدة.. فسألته قائلة :

ـ الا نحاول اتخاذ اية تدابير للحاق بها وإعادتها إلى المنزل ؟.. وكيف ترى ان نفعل ذلك ؟

فاجابنى السيد : « لقد ذهبت بملء رغبتها وارادتها ، ومن حقها ان تفعل ذلك ما دام يسرها .. فلا تشغلينى بأمرها بعد ذلك قط ، لانها من الآن تعد شقيقتى اسما فحسب .. لا لأننى اتبرأ منها ، بل لانها هى التى تنكرت لى وبرئت منى .. »

وكان ذلك كل ما قاله فى هذا الموضوع ، فلم يتخذ سبيلا واحدا للبحث عنها والتقصى عما تم من أمرها ! ولم يذكرها على لسانه فى اى وقت ، إلا عندما امرنى بأن ارسل إليها فى منزلها الجديد ، أينما كان مقره ـ عندما يبلغنى خبر عنه ـ كل ما لها فى الدار من متاع ..

الفصل الثالث عشر

ظل الهاربان غائبين زهاء شهرين دون أن نسمع عنهما شيئا . وفى خلال هذين الشهرين كانت مسز لينتون فريسة لاسوأ صدمة ـ مما يسمى بالحمى المخية ـ حتى قهرتها وتغلبت عليها . وما من أم رؤوم كان يمكن أن ترعى طفلها الوحيد وتمرضه بتفان وإخلاص اكثر مما كان ادجار يرعاها ويمرضها .. كان يسهر عليها الليل والنهار ، ويحتمل فى صبر لا ينضب معينه جميع المضايقات والمتاعب التى يمكن ان تنشأ عن أعصاب سريعة التهيج وعقل مرتج .. وكانت فرحته وشكرانه ، عندما اعلن الطبيب زوال الخطر عنها ، لا يعرفان حدودا لانطلاقهما ، برغم ما لا حظه كينيث من أن التى انقذها ادجار من القبر سوف تجزى رعايته وعنايته بأن تكون مصدر قلق دائم له فى المستقبل !.. والواقع انه كان يضحى بصحته وقوته فى سبيل المحافظة على حطام بشرى ، لا اكثر ولا اقل . كان يقضى الساعة تلو الساعة جالسا إلى جانبها يرقب صحتها البدنية وهى ترتد إليها تدريجيا ، ويعلل النفس بالأمانى الجياشة ـ الخيالية ـ فى ان عقلها سوف يعود إلى توازنه الصحيح أيضا ، وانها لن تلبث حتى ترجع إلى حالتها الطبيعية التى كانت عليها من قبل ..

وكانت أول مرة غادرت فيها حجرتها ، بعد ذلك المرض الطويل ، فى بداية شهر مارس التالى . وكان مستر لينتون

قد وضع فوق وسادتها ، قبل أن تستيقظ فى الصباح ، حفنة من زهور الأقحوان الذهبية ، فلما أفاقت من نومها لمحتها عيناها ـ اللتان ظلتا طويلا لا تعرفان بريق السرور ـ فتألقتا فى مرح وابتهاج ، وراحت تضم الزهور معا ، هاتفة :

ـ هذه بواكير الزهور فى (المرتفعات) .. وهى تذكرنى بالنسمة العليلة ، والشمس الساطعة الدافئة ، والثلوج الذائبة .. قل لى يا ادجار ، ألا تهب نسائم الجنوب الآن ؟ .. وهل اختفت الثلوج أم كادت ؟

ـ لقد اختفت الثلوج تماما من هنا يا عزيزتى ، ولست أرى على طول تلال البرارى إلا بقعتين بيضاوين .. كما أن السماء زرقاء صافية ، والقنابر تصدح بأنغامها الشجية ، والجداول والنهيرات ملأى بالماء حتى حافتها .. لقد كنت فى مثل هذا الوقت من ربيع العام الماضى ، يا كاثرين ، أتوق إلى وجودك تحت سقف هذا البيت ، ولكنى الآن أود لو أنك كنت فوق هذه التلال ، فان الهواء يهب عليها جميلا عليلا ، حتى لأحس بأنه خليق بأن يشفيك تماما ..

فقالت المريضة : « لن اذهب إلى هناك قط إلا مرة واحدة أخرى .. وفى تلك المرة سوف تتركنى هناك ، وسوف ابقى بها أبدا . وفى الربيع القادم سوف تتوق ثانية لأن تجدنى تحت سقف هذا البيت ، وسوف تنظر إلى الوراء وترى أنك كنت سعيدا اليوم ! »

فتألقتا فى مرح وابتهاج ، وراحت تضم الزهور معا ، هاتفة :
ـ هذه بواكير الزهور فى (المرتفعات) ..

فغمرها لينتون بفيض من الملاطفات الرقيقة ، وحاول أن يبهجها بكلمات الحب والحنان ، ولكنها راحت تنظر إلى الزهور ساهمة ، وما لبثت أن تركت قطرات الدمع تتجمع على أهدابها ثم تنساب فوق وجنتيها ، لا تكف ولا تفيض .. وأدركنا جميعا أنها قد تحسنت حقا ، وأن اعتكافها الطويل فى مكان واحد هو السبب فى ذلك القنوط الذى يستبد بها ، والذى قد يفارقها لو بدلت المنظر الذى يحيط بها .. وأمرنى السيد بأن أشعل نارا فى حجرة الجلوس التى ظلت مهجورة أسابيع عدة ، وأن أضع مقعدا مريحا فى أشعة الشمس بجوار النافذة ، ثم أحضرها من الطابق العلوى .. فجلست طويلا تستمتع بالدفء الجميل ، وقد انتعشت كثيرا ـ كما توقعنا ـ من منظر الأشياء المحيطة بها ، فهى وإن كانت مألوفة لديها ، إلا أنها لا تقترن فى ذهنها بتلك الذكريات المروعة لحجرة مرضها البغيضة .. فلما حل المساء ، كانت تبدو منهوكة القوى إلى حد كبير ، ومع ذلك لم تفلح التوسلات أو وسائل الاقناع فى إغرائها على العودة إلى حجرتها ، فاضطررت إلى اعداد اريكة حجرة الجلوس لتتخذ منها فراشا لرقادها ريثما يمكن إعداد حجرة أخرى لها .. وقد اعددنا لها هذه الحجرة ـ التى ترقد أنت فيها الآن يا مستر لوكوود ـ حتى نجنبها مشقة الصعود والهبوط إلى الطابق العلوى ، فهى ـ كما تعلم ـ فى نفس الطابق الذى تقع فيه حجرة الجلوس .. وسرعان ما استعادت بعض قوتها بحيث أمكنها الانتقال من إحداهما للأخرى مستندة إلى ذراع ادجار . آه ، لقد ظننت وقتئذ أنها سوف تشفى حقا ، ما دامت تلقى

كل هذه الرعاية والعناية . وكان ثمة سببان لأن نرجو ذلك ونتمناه ، فان على حياتها تتوقف حياة أخرى ، كما أننا كنا نداعب الأمل فى أنه لن تمضى فترة وجيزة حتى نقر عينا مستر لينتون ويبتهج قلبه بمولد وريث له يقى أملاكه من أن تقع فى قبضة شخص غريب ..

ولا بد لى من القول بأن ايزابيلا أرسلت إلى أخيها ، بعد نحو ستة أسابيع من رحيلها ، خطابا موجزا تعلنه فيه بزواجها من هيثكليف .. وكان خطابا جافا باردا ، ولكنها ذيلته ، وبالقلم الرصاص ، باعتذار غامض ، ورجاء رقيق بأن يذكرها ، وأن يصفح عنها ، إذ كان تصرفها قد اغضبه ، مؤكدة أنها لم تستطع دفع الأمر وقتئذ ، وأنها الآن بعد أن تم كل شىء ، لا تملك القوة على نقض ما أبرمته . واعتقد أن لينتون لم يرد على هذا الخطاب ، فلم يكد يمر عليه أسبوعان حتى تلقيت خطابا طويلا رأيت من العجيب صدوره من قلم عروس فرغت لتوها من شهر العسل .. وسوف أتلو عليك هذا الخطاب ، لأننى ما زلت محتفظة به ، إذ أن آثار الموتى عزيزة غالية ، إذا كانوا فى حياتهم أعزاء محبوبين :

« عزيزتى ايلين ..

« وصلت فى الليلة الماضية إلى (مرتفعات ويذرنج) ، فسمعت ـ للمرة الأولى ـ أن كاثرين كانت ، وما زالت ، تعانى مرضا خطيرا . واحسب أنه ما ينبغى لى أن اكتب إليها ، كما أن أخى إما أن يكون شديد الغضب منى ، أو شديد الأسى

على ، بحيث لم يرد على خطابى إليه .. ومع ذلك فلا بد لى من أن اكتب إلى شخص ما ، وليس أمامى من اكتب إليه سواك .. اخبرى ادجار اننى احب الدنيا بأسرها فى سبيل أن ارى وجهه ثانية ، وان قلبى عاد إلى (ثرشكروس جرانج) بعد أن غادرتها بأربع وعشرين ساعة ، بل انه هناك الآن ، مليئا بالمشاعر الحارة نحوه ونحو كاترين !.. ومع ذلك فليس فى مقدورى أن الحق به (وقد وضعت خطا تحت هذه العبارة لتؤكدها) ، فلا حاجة بهما لأن يتوقعا عودتى ، وليستنتجا من ذلك ما يشاءان ، ولكن حذار أن يعزوا ذلك إلى خور فى ارادتى أو فتور فى عاطفتى ..

« هذا ما اود ان تقوليه لأخى ، اما باقى الخطاب فلك وحدك . واود ان القى عليك سؤالين ، أولهما هو : كيف احتلت على الاحتفاظ بالعواطف العادية للطبيعة البشرية عندما كنت تقيمين هنا ؟.. فاننى لا اتبين اية مشاعر يمكن ان يشاطرنى فيها أولئك الذين يحيطون بى !

« أما السؤال الثانى ، فاننى اهتم به اهتماما عظيما . وهاك هو : هو مستر هيثكليف إنسان من البشر ؟.. وإن كان إنسانا فهل هو مجنون ؟.. وإذا لم يكن ، فهل هو شيطان ؟ .. اننى لن اخبرك بالأسباب التى تجعلنى اوجه إليك هذا السؤال ، ولكنى اتوسل إليك ان تشرحى لى ـ إذا استطعت ـ حقيقة ذلك المخلوق الذى تزوجته . اعنى عندما تحضرين لرؤيتى ، ويجب أن تحضرى سريعا يا ايلين ، لا تكتبى لى ، ولكن تعالى ، ولينك تحضرين لى شيئا من ادجار . .

« واسمعى الآن كيف استقبلت فى منزلى الجديد ، الذى ادخل فى روعى أن (المرتفعات) سوف تكونه . ولست اذكر هذه الأمور التى من قبيل نقص وسائل الراحة الخارجية ، إلا لتسلية نفسى !.. فانها لا تشغل افكارى البتة إلا فى اللحظة التى اشعر فيها بالحاجة إليها . واننى لخليقة بأن ارقص طربا واضحك ملء قلبى لو اننى وجدت هذا النقص هو كل ما اعانيه من شقاء ، وأن ما عدا ذلك ليس إلا حلما شيطانيا رهيبا !

« كانت الشمس تغرب وراء (الجرانج) عندما استدرنا نحو البرارى ، وكانت الساعة وقتئذ ، فيما اعتقد ، قد بلغت السادسة .. فتوقف رفيقى ما يقرب من نصف الساعة ليفتش البستان ، والحدائق ، بل والمنزل نفسه ، بقدر ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهكذا كان الظلام قد أرخى سدوله عندما ترجلنا عن جوادينا فى الفناء المرصوف « للمرتفعات » فلم يلبث أن خرج زميلك السابق الشيخ ، جوزيف ، ليستقبلنا على ضوء الشمعة الخافت . ولقد فعل ذلك فى بشاشة ولطف يضافان إلى سمعته الطيبة المعروفة !.. فقد كان أول ما فعله هو أن رفع مشعله امام وجهى مباشرة ، وراح يحملق فيه بعينين تضيقان وتنبضان خبثا ولؤما ، ثم قلب شفته السفلى ، واشاح بوجهه عنى . وبعد ذلك قاد الجوادين إلى الحظيرة ، وعاد ليوصد البوابة الخارجية بالسلاسل والأقفال ، كاننا نعيش فى إحدى القلاع القديمة !

« وبقى هيثكليف ليتحدث إليه ، أما أنا فقد دخلت إلى المطبخ ، ووجدته قذرا مشوشا لا نظام فيه ولا ترتيب .

واحسب انك لو رأيته الآن لما عرفته ، فقد تغير كثيرا عما كان عليه عندما كان معهودا به إليك . وكان يقف إلى جوار الموقد غلام زرى الهيئة ، قوى البنية ، قذر الثياب ، يشبه كاثرين فى عينيها وفمها ، فقلت فى نفسى : انه ابن اخ زوجة ادجار ، ومن ثم فهو ابن اخيه حكما ، وبالتالى فانه يعد ابن اخى على نحو او آخر ، وينبغى لى ان أصادقه ، بل ينبغى لى ـ نعم ـ ان اقبله !.. فمن الصواب ان انشىء معه تفاهما طيبا منذ البداية ..

« اقتربت منه وحاولت ان اتناول يده المكتنزة قائلة :

ـ كيف حالك يا عزيزى ؟

« فاجاب فى تمتمة لم افهم منها شيئا ، وعندئذ كانت محاولتى الثانية للحديث معه :

ـ هل سنكون أصدقاء يا هيرتون ؟

« فكان جزائى على هذا الاصرار فى الحديث معه ، ان اطلق من فمه سبابا قبيحا ، ونوعدنى بأن يطلق (ثروتر) فى اثرى إذا لم « اره عرض اكتافى » : بل لقد أيقظ كلبا ضخما ضاريا من وكره فى احد الاركان ، وراح يهمس إليه قائلا : « هيا ياثروتر .. عليها يا ولد ! » .. ثم تحول نحوى يسألنى فى غطرسة . « والآن .. هل تذهبين لحال سبيلك ؟ »

« فدفعنى حب الحياة إلى الامتثال لأمره ، وخطوت فوق العتبة إلى الخارج لأنتظر عودة الآخرين فادخل معهم . ولكن مستر هيثكليف لم يظهر فى اى مكان ، اما جوزيف ،

الذى ذهبت إليه فى الحظيرة ورجوته ان يصحبنى إلى الداخل ، فقد راح يحملق فى وجهى ويغمغم بكلام لا اسمعه ، ثم شمخ بأنفه وقال : « مهلا ، مهلا . هل سمع إنسان قبل قط بشىء كهذا ؟.. ما هذا الكلام الذى تمضغينه وتتشدقين به ؟.. وكيف يمكننى ان افهم ما تقولين ؟ » .. فظننته مصابا بالصمم ، وإن كانت خشونته وفظاظته قد أثارت اشمئزازى البالغ ، وصحت قائلة : « لقد كنت ارجوك أن تحضر معى إلى داخل المنزل .. »

ـ لا تطلبى منى شيئا كهذا .. فلدى عمل آخر اقوم به !

« وعاد يستأنف عمله ، وهو يحرك فى الوقت نفسه صفحتى مصباحه ، متأملا فى ازدراء شديد ثوبى ووجهى . (أما الأول فكان بالغ الأناقة والجمال ، وأما الثانى فانى واثقة من انه كان يحمل من الحزن ما كان بوده ويشتهيه !) .. فسرت فى الفناء حول المنزل ، وولجت كوة صغيرة ، وجدت نفسى بعدها أمام باب مغلق أبحث لنفسى ان اطرقه راجية ان اجد امامى خادما آخر اكثر ادبا . ولما لبث الباب أن فتح بعد فترة وجيزة ، ووقف فيه رجل طويل القامة شديد النحول ، بغير رباط للعنق ، فضلا عن رثاثة الثياب التى يرتديها ، وكانت اساريره مختفية تحت كتل من الشعر المشعث الذى يملأ وجهه ويتدلى حتى يصل إلى كتفيه . وكانت عيناه ـ هو الآخر ـ تشبه عينى كاثرين ، على نحو مخيف ، وإن تجردتا من جمال عينيها .. فابتدرنى فى عبوس وصرامة :

ـ ما شأنك هنا ؟.. ومن انت ؟

ـ لقد رأيتنى من قبل يا سيدى ، وكان اسمى وقتئذ ايزابيلا لينتون . غير انى تزوجت من مستر هيثكليف اخيرا ، فاحضرنى إلى هنا ، بإذنك طبعا !

« فسألنى ، وعيناه تقدحان شررا كذئب جائع : « هل عاد إذن ؟ »

ـ نعم .. لقد عدنا للتو ، ولكنه تركنى بجوار باب المطبخ ، وعندما اردت الدخول ، كان ابنك الصغير يقف حارسا للمكان ، واستطاع بمعونة كلب من نوع البولدوج ان يخيفنى حتى وليت هاربة ..

« فزمجر مضيفى الجديد ، قائلا : « لقد احسن الوغد الجهنمى صنعا بالمحافظة على كلمته ! » .. ثم راح يحملق فى الظلام خلفى ، مؤملا أن يتبين هيثكليف ، وما لبث ان انطلق يغمغم طويلا بأقذع الفاظ السباب ، والوعيد بما كان سيفعله لو ان « الشيطان » خدعه ، واخلف وعده ، فلم يعد !

« وندمت على محاولتى الدخول من هذا المدخل الثانى ، وكنت اكاد اميل إلى الفرار قبل أن يفرغ من سبابه ، ولكن قبل ان استطيع تنفيذ تلك النية ، امرنى بالدخول ، ثم اوصد الباب خلفى بعد ان اغلقه . وكانت بالحجرة نار عظيمة مشبوبة ، وكان ذلك كل ما يضىء تلك الحجرة الفسيحة ، التى اكتسى بلاطها الأبيض لونا رماديا موحدا !.. اما الأطباق اللامعة البراقة التى كانت تجتذب انظارى عندما كنت أحضر

للزيارة وانا بعد فتاة صغيرة ، فقد انقلب بريقها إلى قتامة كئيبة بسبب ما علاها من قذارة وتراب ، شانها فى ذلك شأن البلاط !

« وسألت هندلى ايرنشو عما إذا كان يجدر بى أن ادعو الوصيفة لترشدنى إلى إحدى حجرات النوم . ولكنه لم يتعطف على بجواب !.. كان يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، واضعا يديه فى جيوبه ، وقد بدا عليه انه نسى وجودى تماما . كان من الجلى ان شرود ذهنه قد بلغ من العمق والاستغراق ، كما كان مظهره ينم على عداء للبشر جميعا ، ما جعلنى أحجم عن محاولة إزعاجه مرة أخرى .

« ولا أخالك تدهشين يا ايلين مما اعترانى من شعور بالكآبة والاسى ، وانا جالسة فيما هو اسوأ من الوحدة ، فى تلك الحجرة غير المضيافة ، افكر فى انه على بعد اربعة اميال فحسب يقع منزلى المحبوب البهيج ، الذى يضم كل من احبهم على وجه الارض ، وان المحيط الأطلسى قد يكون هو الذى يفرق بيننا ، بدلا من هذه الأميال الاربعة ، التى يستحيل على اجتيازها . ورحت اسائل نفسى أين اذهب لأنال قسطا من الراحة ؟.. وكان حزنى ، الذى غلب كل حزن بجانبه ـ وارجو الا تخبرى بذلك ادجار او كاترين ـ ينشأ من يأسى من العثور على شخص واحد يستطيع ، او يود ، ان يكون حليفى ضد هيثكليف !.. لقد كنت انشد الملجأ والمأوى فى (مرتفعات ويذرنج) ، فى شىء من السرور والارتياح ، لأن ذلك الترتيب كان خليقا بأن يؤمننى من العيش معه على انفراد .

ولكنه ـ وا أسفاه ! ـ كان يعرف الناس الذين سوف نعيش بينهم حق المعرفة ، فكان لا يخشى فضولهم وتدخلهم ..

« وقضيت وقتا طويلا اليما جالسة أفكر .. ودقت الساعة الثامنة ، ثم التاسعة ، ومع ذلك كان رفيقى لا يزال يروح ويغدو من أقصى الحجرة إلى أقصاها ، وقد أحنى رأسه فوق صدره ، واستغرق فى صمت موحش ، لا تقطعه إلا همهمة خافتة ، أو تنهد مرير يفلت من بين شفتيه بين وقت وآخر . وكنت أرهف سمعى عسى أن أتبين صوت امرأة فى الدار ، وأملأ هذا الوقت الطويل بالأحزان الضارية ، والتكهنات المروعة عما ينتظرنى من مستقبل مشئوم ، وما لبثت أن عجزت عن كتمانها ، فانطلقت من بين شفتى فى أنين ونواح لم أستطع قمعهما .. ولم أشعر بارتفاع صوتى إلا عندما تمهل ايرنشو فى مشيته الرصينة أمامى ، وراح يحملق فى وجهى فى دهشة من يرانى لأول مرة ، فانتهزت فرصة استعادته شعوره وانتباهه ، وصحت :

ـ إننى متعبة من سفرى الطويل وأريد الذهاب إلى الفراش .. فأين الوصيفة ، أو أية خادم أخرى ؟.. أرشدنى إليها يا سيدى ما دامت لا تريد أن تحضر إلى !

« فأجابنى : « لا توجد هنا وصيفات أو خادمات .. وعليك أن تعنى بنفسك ! » .. وعندئذ رحت أنتحب فى أسى ، وقد أخرجنى التعب والبؤس عن وقارى ، وقلت : « ولكن اين ينبغى أن أنام إذن ؟ »

ـ سوف يريك جوزيف حجرة هيثكليف .. افتحى هذا الباب ، فتجديه هناك .

« فلما همهمت بأن أطيعه ، أمسك بى فجأة ، واستطرد يقول فى أغرب صوت سمعته : « كونى فتاة طيبة ، واوصدى باب الحجرة بالمفتاح ثم ضعى المزاليج وراءه . إياك أن تغفلى ذلك ! »

« ولم استسغ فكرة حبس نفسى مع هيثكليف فى حجرة واحدة بمحض رغبتى ، فقلت : « حسنا .. ولكن لماذا يا مستر ايرنشو ؟ » .. فأخرج من جيب صدريته مسدسا عجيب التكوين ، إذ كانت تتصل بماسورته سكين ذات حدين مرهفين ، يحركها لولب خفى ، ثم قال :

ـ انظرى .. إن هذه شديدة الاغراء لرجل يائس !.. أليس كذلك ؟.. اننى لا أستطيع أن امنع نفسى من الصعود إلى الطابق العلوى كل ليلة ، وهذه فى يدى ، فأحاول فتح باب حجرته .. فلو وجدت الباب مفتوحا مرة ، فقد انتهى أمره ! .. اننى افعل ذلك دواما ، حتى ولو كنت فى اللحظة السابقة مباشرة أفكر فى مئات الأسباب الكفيلة بأن أحجم عن هذه المحاولة !.. وما من ريب فى أن شيطانا خبيثا لا يفتأ يستحثنى على إحباط خططى ومشاريعى ، بتحريضى على قتله !.. وانك لتناضلين هذا الشيطان عبثا مهما طال بك المدى ، فعندما يحين الوقت ، فان كل ملائكة السماء لن تستطيع إنقاذه !

« ورحت أرمق السلاح فى فضول ولهفان ، وقد طرأت على ذهنى فكرة بشعة فظيعة : فكم أكون قوية حصينة لو استطعت أن أحرز مثل هذه الأداة !.. وأخذتها من يده ، ورحت أمر بأصابعى على النصل المرهف ، فبدت عليه الدهشة من ذلك التعبير الذى ارتسم على وجهى لحظة خاطفة . لم يكن فزعا ، وإنما كان جشعا وتلهفا !.. فأسرع باختطاف المسدس من يدى ، فى حرص الشحيح ، وارجع السكين إلى مكانها ، ثم أعاده إلى مخبئة ، قائلا : « اننى لا أبالى أن تخبريه ، فدميه يأخذ حذره ، وأسهرى على حمايته ! .. وأرى أنك تعرفين سوء ما بيننا من صلات ، فان الخطر الذى يتهدده لم يفاجئك ولم يرعك ! »

« فسألته : « ما الذى فعله هيثكليف معك ، وبماذا أساء إليك ، حتى تنطوى له على هذا الحقد المروع ؟ .. ألا يكون أكثر حكمة وتعقلا أن تأمره بمغادرة الدار ؟ »

« فهدر ايرنشو بصوت كالرعد القاصف : « كلا .. وإذا اقترح أن يفارقنى ، فسوف يغدو جثة هامدة . ولو أنك أغريته على هذه المحاولة ، فسوف تصبحين قاتلة !.. هل تقضى على أن أفقد كل شىء ، دون أن تكون لدى الفرصة لاستعادته ؟.. وهل قضى على هيرتون أن يعيش شحاذا ؟ آه ، يا للعنة !.. أقسم اننى سوف استعيد كل شىء ، وسوف آخذ ماله وذهبه أيضا . ثم بعد ذلك دمه !.. أما روحه فستكون من نصيب الجحيم !.. ولسوف يزداد لظاها سعيرا ، عشرة أضعاف ، عندما يحل بها هذا الضيف ! » .

« .. ولقد سبق لك أن اطلعتنى ، يا ايلين ، على طباع سيدك السابق . ومن الجلى انه على حافة الجنون ، أو انه كان كذلك ليلة الأمس على الأقل . وقد اقشعر بدنى من البقاء قريبة منه ، ورأيت أن شراسة الخادم الوقح تعد سارة لى نسبيا . وكان قد عاود سيره المهموم ، فمضيت نحو الباب ، ورفعت المزلاج ، ثم فررت إلى المطبخ .. فرأيت جوزيف منحنيا فوق الموقد ، يمعن النظر فى قدر كبيرة كانت تتأرجح فوقه ، بينما كان على المقعد بجواره قصعة خشبية ملأى بدقيق الشوفان . وكانت محتويات القدر قد بدأت تغلى ، فتحول إلى القصعة وهو يهم بدس يده فيها . وحدست انه ربما كان يعد لنا العشاء ، وإذ كنت شديدة الجوع ، فقد عزمت على أن يكون ذلك الطعام مما استسيغ تناوله .. وهكذا صحت به ، وأنا أبعد القصعة عن متناول يده :

ـ سوف أعد ، أنا ، هذا الثريد ..

« ومضيت انزع قبعتى وثوب الركوب الذى كنت ارتديه ، واستطردت قائلة : « لقد أشار على مستر ايرنشو أن اعنى بنفسى ، وسوف افعل .. فلن أقوم بدور السيدة بينكم ، حتى لا أموت جوعا ! »

« فجلس جوزيف على مقعد بعيد ، وراح يربت على جواربه المضلعة من ركبته حتى عقبه ، وهو يغمغم قائلا : « لعل هناك أوامر جديدة بعد ذلك !.. وإذا قدر لى أن أجد سيدة فوق رأسى ، بعد أن اعتدت أخيرا خدمة سيدين ، فعلى الراحة

والهدوء السلام !.. انني ما فكرت قط فى أن أرى يوما اضطر فيه إلى ترك المنزل القديم ، ولكنى أخشى أن يكون الوقت قد حان لذلك ! »

« .. فلم أعر هذه المتاحة أى التفات ، ومضيت مندفعة فى عملى ، وقد تنهدت إذ ذكرت زمنا كان ما أقوم به الآن خليقا بأن يبدو أضحوكة لطيفة .. ولكن سرعان ما اضطررت لطرد هذه الذكرى ، فان استعادة سعادتى الماضية أمام ناظرى كانت تسبب لى عذابا وشقاء لا قبل لى باحتماله . وكنت كلما اشتد خطر استحضار هذا الشبح من أعماق الماضى ، أسرعت فى تقليب الثريد ، ومتابعة قذف قبضات الدقيق فى القدر . وكان جوزيف يرقب طريقتى فى الطهى بسخط متزايد ، وما لبث أن صاح قائلا : « هيرتون ، انك لن تتناول عشاءك من الثريد الليلة يا بنى !.. فلن يكون إلا كتلا كبيرة جافة كقبضة يدى . ما هذا ؟.. لو كنت فى مكانك لألقيت التصعة كلها بما فيها فى القدر !.. ما شاء الله !.. وما هذا الدق بالمغرفة ؟.. من حسن الحظ أن قاع القدر لم يسقط فى النار ! »

« واعترف أن الثريد عندما سكب فى الأطباق كان غليظا خشنا . كانت أربعة أطباق هى التى أعدت للعشاء ، كما احضروا ابريقا كبيرا مملوءا باللبن الطازج ، أمسك به هيرتون وراح يشرب من فوهته ، واللبن يسيل من بين شفتيه المدودتين .. فاعترضت ، ورغبت إليه فى أن يأخذ نصيبه

فى قدحه ، مؤكدة أننى لا أستطيع أن أذوق طعاما أو شرابا تتبادله الأفواه بهذه القذارة . ولكن المهرج العجوز رأى أن يبدى شعوره بالاهانة البالغة التى لحقت به وبالأسرة من ملاحظتى الدقيقة ، فراح يردد القول فى تأكيد بأن « الصبى لا يقل طيبة » عنى ، و « لا يقل تهذيبا ونظافة » ، ويعجب كيف استطعت أن أظهر بهذه الخيلاء وهذا الغرور !.. وفى الوقت نفسه كان الوغد الصغير مستمرا فى لعق اللبن ، وهو يحدجنى بنظرات نارية ملؤها التحدى ، وقد ترك لعابه يختلط باللبن فى الابريق !

« عندئذ قلت : « سوف أتناول عشائى فى حجرة أخرى .. أيوجد لديكم ما تسمونه حجرة الجلوس ؟ » .. فأجابنى ساخرا متهكما : « حجرة الجلوس ؟.. حجرة الجلوس ؟.. كلا ، لا توجد لدينا حجرات للجلوس !.. إذا كانت سحبتنا لا تروقك ، فهناك السيد أذهبى إليه . وإذا لم يرقك السيد فها نحن تحت أمرك ! » .

« فأجبته قائلة : « سوف أصعد إلى الطابق العلوى .. أرنى حجرة أجلس فيها . » .. وكنت قد وضعت طبقى فوق صحفة ، كما ذهبت بنفسى فأحضرت بعض اللبن النظيف ، فنهض جوزيف بعد تأفف وتذمر عظيمين ، وتقدمنى فوق الدرج ، حتى بلغنا الحجرات العلوية . وكان بين الحين والآخر يفتح بابا وينظر بداخل الحجرات التى كنا نجتازها ، وأخيرا رفع لوحا متداعيا من الخشب ، تصر مفصلاته صريرا قبيحا ، وقال :

ـ هاك حجرة تصلح لتناول عشائك فيها !.. وسوف تجدين كيسا من القمح فى الركن ، وهو كيس نظيف تماما .. ولكن إذا كنت تخشين اتلاف ثوبك الحريرى العظيم فانشرى منديلك فوقه واجلسى عليه !

« وكانت تلك (الحجرة) أشبه بحجر مصنوع من الخشب، تفوح منه رائحة الحنطة والشعير القوية ، وقد كدست حول جدرانه زكائب هذه الغلال تاركة فراغا فسيحا فى وسطه .. فالتفت إليه ، وواجهته غاضبة ، وانا اصيح به : « ما هذا يا رجل ؟ ليس هذا بالمكان الذى يصلح للنوم .. انى اريد ان ارى حجرة نومى ! »

« فعاد يقول فى لهجته الساخرة : « حجرة النوم ؟.. لقد رايت كل ما لدينا من حجرات النوم .. إلا حجرتى » .. ثم اشار إلى « الوكر » المجاور الذى لم يكن يختلف عن الاول إلا فى خلو جدرانه من الزكائب نوعا ما ، وفى احتوائه على فراش عريض منخفض ، خال من الستائر ، على احد طرفيه لحاف مصبوغ بالنيلة !

فظلت اجيبه : « وما حاجتى إلى غرفتك ؟.. احسب ان مستر هيثكليف لا يقيم فوق سطح المنزل ، اليس كذلك ؟ » .. فصاح كأنما وقع على كشف جديد : « آه !.. اهى حجرة مستر هيثكليف التى تريدين ؟.. اما كان بوسعك ان تقولى ذلك من اول وهلة ، حتى كنت اخبرك ـ بدلا من كل هذا الوقت الضائع ـ إنها الحجرة التى لن تستطيعى رؤيتها

بالذات ، لانه يوصدها دائما ولا يسمح لمخلوق بان يدخلها ، غيره ! »

« فلم اتمالك نفسى من القول : « ان لكم منزلا جميلا يا جوزيف ، يضم عشرة لطيفة سارة !.. وما اظن إلا ان الخلاصة المركزة لشر انواع الجنون فى العالم قد اتخذت لها مستقرا فى عقلى يوم ان ربطت مصيرى بمصائرهم وقدرى بأقدارهم !.. ولكن مهما يكن من أمر فان ذلك ليس موضع البحث الآن .. ان هناك حجرات اخرى ، فاناشدك الله واستحلفك بحق السماء ان تسرع فترشدنى إلى مكان اقر فيه قليلا ، اينما يكن هذا المكان ! » .

« ولم يجبنى بكلمة على هذا التوسل ، بل اخذ يهبط الدرجات الخشبية للسلم فى ضيق وتبرم حتى وقف امام حجرة ادركت من وقفته ، ومن اثاثها الممتاز ، انها خير حجرات المنزل . كانت بها سجادة !.. سجادة جيدة ، غير ان نقوشها ورسومها كانت ملطوسة تحت اكداس الغبار الملبدة . وكانت بها مدفأة لصق على الجدار فوقها ورق ملون ممزق يتدلى قطعا وشرائح غير منتظمة .. وفراش عريض فاخر من خشب البلوط تحوطه ستائر فضفاضة قرمزية اللون من قماش ثمين وطراز حديث ، وإن كان من الواضح انها عانت الكثير من سوء الاستعمال ، إذ كانت اطرافها العليا غير مشدودة ، بل تتدلى فى دوائر وقد نزعت من حلقاتها ، على حين كان القضيب الحديدى الذى يحملها ينحنى كالقوس على احد

جانبى الفراش وقد تدلت الستائر منه تجرجر اذيالها على الارض .. حتى المقاعد كانت تالفة ، واكثرها مهشم تماما ! .. وكانت ثمة نجوات غائرة عميقة تشوه الواح الخشب الثمين التى تكسو الجدران ، وتدل على ارتطام اجسام صلبة حادة بها ..

« وكنت احاول ان استجمع عزيمتى للدخول إلى هذه الحجرة والاستيلاء عليها ، عندما اعلن مرشدى الأحمق أن « ها هنا حجرة السيد » .. وكنت وقتئذ قد برد طعامى ، وفترت شهيتى ونفد صبرى ، فأخذت الح عليه فى ان يدلنى على مكان الجأ إليه واجد فيه وسائل الراحة .. فبدا الشيخ المتدين يقول : « واين بحق الشيطان ؟.. ليرحمنا الله !.. ليغفر لنا الله !.. اين تريدين أن تنسكمى بحق الجحيم ؟! انت ايتها العروس المتعبة !.. لقد رايت كل شىء إلا حجرة هيرتون الصغيرة .. ولا يوجد فى المنزل بعد ذلك جحر صغير آخر تأوين إليه ! »

« وكان الغضب والضيق قد نالا منى ، فطوحت بالصحفة ومحتوياتها من يدى إلى الارض ، وجلست فوق قمة الدرج ، واخفيت وجهى بين يدى ، وانخرطت فى البكاء .. بينما كان جوزيف يصيح :

ـ اخ .. اخ .. مرحى .. مرحى !.. انك قد احسنت صنعا !.. سوف يتعثر السيد الآن فى هذه الاوعية المحطمة ، وسوف نسمع منه الكثير . سوف نسمع منه ما ينبغى

وما لا ينبغى .. انت ايتها الحمقاء الطائشة !.. انك تستحقين ان ينحل جسمك ويهزل من الآن حتى عيد الميلاد لإلقائك نعم الله الثمينة تحت الاقدام فى غضبك الاحمق . ولكنى لا اكون اعرف شيئا إن استطعت انت إظهار هذا الخلق السيىء طويلا! .. فهل تظنين أن هيثكليف سيسكت على هذه الفعال الطيبة ؟!.. الا ليته يضبطك الآن متلبسة !.. ليته يأتى ليرى ما فعلت !

« وهكذا ظل منطلقا فى تأنيبه لى ، بينما كان يهبط الدرج إلى وكره فى الطابق الأسفل ، حاملا الشمعة معه ، وتاركا إياى فى الظلام !.. وقد اضطرتنى فترة التفكير التى تلت هذه الفعلة الطائشة إلى الاقتناع بأننى يجب أن اطامن من كبريائى وأن اكبح جماح غضبى ، وأن اسارع إلى إزالة آثار ما فعلت .. وما كدت اهم بالعمل ، حتى بعث لى القدر بمساعد غير متوقع ، فى شكل « ثروتلر » الذى عرفت فيه عندئذ ابن كلبنا القديم « سكالكر » ، وكان قد قضى فترة (الحضانة !..) فى « الجرانج » قبل أن يهديه أبى إلى مستر هندلى . واغلب الظن انه عرفنى ، فقد مسح انفه بأتفى على سبيل التحية ، ثم اسرع إلى التهام الثريد مساعدة لى على تنظيف المكان من آثار تسرعى وطيشى .. بينما كنت انتقل من درجة إلى أخرى لأجمع قطع الفخار المحطمة ، وامسح بمنديلى رشاش اللبن المتطاير فوق السياج .. وما كدنا نفرغ من مهمتنا ، حتى سمعت وقع خطوات ايرنشو فى الممر ، فأرخى مساعدى ذنبه وحشره بين فخذيه ، ثم التصق بالجدار خائفا ، على حين

« وهكذا ظل منطلقا فى تانيبه لى ، بينما كان يهبط الدرج الى وكره فى الطابق الأسفل ، حاملا الشمعة معه .. »

اسرعت استرق الخطى إلى أقرب باب إلى فاختبأت بداخله .. وقد فشلت محاولة الكلب تجنبه ، كما أدركت ذلك من الجلبة الناشئة عن عدوه السريع ، ومن عوائه الطويل الأليم .. ولكنى كنت اسعد حظا ، فقد مر بالحجرة التى اختفيت فيها مر الكرام ، ومضى إلى حجرته ثم اوصد بابها وراءه .. وفى اللحظة التالية كان جوزيف يضع مع هيرتون ليضعه فى فراشه .. وكانت الحجرة التى اتخذتها ملجأ لى هى حجرة هيرتون ، فلما رآنى الشيخ الفانى قال :

ــ ها قد وجدت حجرة لك ولكبريائك فى المنزل ، كما ترى . انها خالية ، ويمكن أن تتسع لكما معا ، وحاشا لله أن يكون ثالثكما فى مثل هذه الصحبة الشريرة !

« وتلقفت هذا الإيعاز بسرور بالغ ، وما كدت القى بنفسى فوق احد المقاعد بجوار النار ، حتى هومت ، ثم استغرقت فى النوم .. وكان نومى هادئا عميقا ، وإن لم استمتع به طويلا ، فقد ايقظنى مستر هيثكليف ــ وكان قد رجع لتوه من الخارج ــ ليسألنى ، بلهجته الرقيقة الحبيبة ، عما افعله فى هذا المكان . فاخبرته بسبب بقائى إلى هذه الساعة المتأخرة ، وهو انه كان يحتفظ بمفتاح حجرتنا فى جيبه ! وكان لاستعمالى لضمير الجمع أثر رهيب ، كأننى ارتكبت إثما مميتا .. فقد راح يسب ويقسم أن الحجرة ليست حجرتى ، ولن تكون حجرتى يوما ما ، وانه سوف .. ولكنى لن اعيد على مسامعك الفاظه ، ولن اصف لك مسلكه المعتاد معى .. فهو شديد البراعة والدهاء ، ولا يقر له قرار فى استثارة حقدى وكراهيتى

.. وانى لتأخذنى الدهشة ويستولى على الذهول كلما فكرت فى امره ، فتكون دهشتى من العمق بحيث تطغى على خوفى منه .. ولكنى اؤكد لك ان ثمرا مفترسا او افعوانا سما لا يمكن ان يثير فى نفسى ما يثيره هو من الرعب والفزع . وقد انبأنى بمرض كائرين ، واتهم اخى بأنه السبب فيه ، وانذرنى بأننى سوف انوب عن ادجار فى مقاساة الالم والعذاب .. حتى يستطيع ان يضع يده عليه !

« اننى اكرهه ، اكرهه .. يا لى من تعسة شقية !.. وكم كنت حمقاء طائشة ، ولكن حذار ان تلفظى بكلمة من ذلك لأحد فى (الجرانج) .. وسوف اتوقع حضورك يوما بعد يوم .. وكل ما ارجوه الا تتخلى عنى وتخيبى أملى ..

« ايزابيلا »

الفصل الرابع عشر

ما إن فرغت من تلاوة تلك الرسالة ، حتى ذهبت إلى السيد فأخبرته بأن اخته قد وصلت إلى (المرتفعات) وانها ارسلت لى خطابا تعرب فيه عن أساها لما اصاب مسز لينتون ، وعن رغبتها الحارة فى رؤيته ، ورجائها فى ان يرسل إليها معى ، فى اقرب وقت مستطاع ، ما يدل على صفحه عنها !

فقال لينتون : « صفحى عنها ؟.. ليس لدى ما اصفح عنها من اجله يا ايلين .. ويمكنك ان تذهبى إلى (مرتفعات ويذرنج) بعد ظهر اليوم ، إذا شئت ، وان تقولى لها اننى لست غاضبا منها ، إنما انا آسف من اجلها ، حزين لأنى فقدتها .. سيما واننى لا استطيع ان اعتقد البتة بأنها سوف تكون سعيدة . ومهما يكن من أمر ، فان ذهابى لرؤيتها لا يمكن ان يكون موضع تفكير ، فان فراقنا ابدى .. اما إذا رغبت حقا فى أن تسدى إلى جميلا ، فدعيها تقنع الوغد الذى تزوجت منه بأن يترك البلاد ! »

فسألته متوسلة : « وهلا بعثت إليها برقعة صغيرة يا سيدى ؟ »

ـ كلا ، فلا حاجة بنا إلى ذلك .. وإن اتصالى بعائلة هيثكليف أمر لا يمكن تحقيقه ، كاتصاله بعائلتى ، ولن يكون له وجود قط ..

وقد أحزننى برود مستر ادجار كثيرا ، ورحت اكد ذهنى ، على طول الطريق من (الجرانج) ، بحثا عن الوسيلة التى

www.liilas.com/vb3 LILAS TEEN

اخفف بها من وقع كلماته ، عندما اردده على مسامعها !.. وكيف اهون من رفضه كتابة بضع كلمات يسرى بها عن ايزابيلا . واحسب انها كانت تترقب حضورى منذ الصباح ، إذ رايتها تنظر من خلال سجاف النافذة ، بينما كنت اجتاز الطريق المؤدية إلى الحديقة ، فلما اومأت إليها برأسى محيية ، رايتها تتراجع عن النافذة ، كأنما تخشى ان يراها احد ! ودخلت البيت دون ان اطرق الباب ، فما رايت فى حياتى منظرا ابشع ولا افظع من المنظر الذى يبدو فيه منزلنا القديم المرح !.. ولكن لا بد لى من الاعتراف بأننى لو كنت فى مكان السيدة الشابة لقمت ، على الاقل ، بكنس الأرض حول الموقد ، ولمسحت الموائد بقطعة من القماش .. ولكنها كانت قد تشبعت بروح الإهمال التى تسود كل من يحيط بها . وكان محياها الجميل شاحبا مصفرا ، يبدو عليه الضعف وقلة الاكتراث ، وشعرها مشعثا غير مرجل ، وقد تدلت بعض غدائره فى غير نظام ، بينما عقص باقيها حول راسها فى إهمال . اما هندامها فيكفى أننى رجحت انها لم تلمس ثوبها منذ مساء اليوم السابق !.. ولم يكن هندلى هناك ، اما مستر هيثكليف فكان جالسا إلى منضدة ، يقلب بعض الأوراق فى مفكرته ، ولكنه بادر إلى النهوض عند ظهورى ، وسألنى عن حالى ، فى كثير من الود ، ثم قدم لى مقعدا . وكان هيثكليف الشىء الوحيد الذى يبدو فى هذا المكان نظيفا محترما ، حتى لقد خطر لى ان مظهره لم يكن يوما خيرا مما هو الآن !.. ولقد بلغ من عظم ما فعلته الاحداث من تبديل

مركزيهما ، انه كان يبدو فى نظر الغريب الذى لا يعرف منشاه ، كأنما ولد وربى فى وسط النبلاء والاشراف ، على حين ان زوجته كانت تبدو كأنها امراة صغيرة نشأت وسط الأقذار والإهمال وسوء التربية !

وتقدمت ايزابيلا لتحيتى فى لهفة وقلق ، ومدت إلى إحدى يديها لتتلقى الخطاب المنتظر ، فهززت راسى .. ولكنها لم تفهم تلميحى ، وتبعتنى إلى خزانة ثياب كنت اهم بأن اضع فيها قبعتى ، وهى تتوسل إلى فى همس بأن اعطيها للتو ما احضرته معى .. وقد حدس هيثكليف معنى مناوراتها ، فقال :

ـ إذا كان معك شىء لايزابيلا ، ولا بد ان يكون معك شىء لها يا نللى ، فأعطيه لها ، ولا حاجة بك إلى اعتباره سرا ، فلا اسرار بيننا ..

ورايت من الأفضل أن اذكر الحقيقة من فورى ، فاجبت :

« آه !.. ليس معى شىء البتة . وقد طلب إلى سيدى ان اخبر شقيقته بأنها لا ينبغى أن تتوقع منه زيارة أو خطابا فى الوقت الحاضر .. وهو يبعث إليك ، يا سيدتى ، بحبه وتمنياته لك بالسعادة ، وصفحه عما سببت من احزان ، ولكنه يرى انه ينبغى بعد الآن قطع كل صلة بين اهل منزله واهل هذه الدار ، تلك الصلة التى لا يرجى من قيامها امل قط !

فارتجفت شفتا مسز هيثكليف رجفة طفيفة ، وعادت إلى مقعدها بجوار النافذة ، اما زوجها فقد وقف بجوار الموقد ،

قريبا منى ، وبدا يلقى على الأسئلة عن حالة كاثرين ، فأخبرته بما وجدت من الأليق أن أقوله عن أسباب مرضها ، ولكنه امطرنى بوابل من الأسئلة المتلاحقة حتى انتزع منى الحقائق المتعلقة بمنشأ هذا المرض . وقد وجهت إليها اللوم الذى تستحقه ، لأنها هى التى جلبت ذلك كله إلى نفسها ، ثم ختمت حديثى بالأمل فى أن يحذو حذو مستر لينتون ، ويتجنب اى تدخل فى شئون عائلته فى المستقبل ، سواء اكان للخير ام للشر .. قلت له :

ـ لقد بدأت مسز لينتون الآن تتماثل للشفاء ، ولكنها لن تعود إلى حالتها الأولى قط ، بعد ان نجت من الموت بمعجزة . وإذا كنت حقا تحترمها وترجو لها الخير ، فعليك ان تتجنب اعتراض طريقها مرة اخرى . بل انه ليجدر بك ان ترحل عن البلاد نهائيا ، وهو امر لن تأسف عليه قط ، فان كاثرين لينتون الآن تختلف عن صديقتك القديمة كاثرين ايرنشو ، اختلافا عن هذه السيدة الشابة !.. لقد تغير مظهرها تغيرا كبيرا ، وكذلك خلقها وطباعها . والرجل الذى يجد نفسه مضطرا إلى عشرتها ، بحكم الضرورة ، لا يقيم اود عاطفته ، من الآن فصاعدا ، إلا على ذكرى ما كانت عليه يوما من الأيام ، وبدافع من الإنسانية والشعور بالواجب !

فاصطنع هيثكليف الهدوء ، وعقب على كلامى قائلا :

ـ من الجائز ان يكون الأمر كذلك . من الجائز حقا الا يجد سيدك شيئا يتعلل به سوى إنسانيته وشعوره

بالواجب ، ولكن تتصورين اننى أدع كاثرين لإنسانيته وواجبه ؟.. انك قبل ان تغادرى هذا المنزل يجب ان تعدينى بتهيئة لقاء بينى وبينها . واعلمى انه سواء رضيت انت لم ابت ، فانى سوف اراها حتما .. فماذا تقولين ؟

ـ اقول يا مستر هيثكليف إنه لا ينبغى لك ان تطلب إلى ذلك ، ولن تنال شيئا منه عن طريقى قط ، فان لقاء آخر بينك وبين السيد سوف يقتلها حتما !

فاستطرد يقول دون ان يبالى باعتراضى :

ـ ربما أمكن تجنب ذلك بمساعدتك . اما إذا نشأ اى خطر من وراء مثل هذا اللقاء ، اى إذا كان سيدك سببا فى تعكير صفوها مرة اخرى ، فأحسبنى اكون على حق لو مضيت معه إلى ابعد الحدود . واننى ، يا نللى ، ارجو ان تكونى صادقة معى فتخبرينى هل تتألم كاثرين كثيرا إذا فقدته ؟.. فان الخوف من إيلامها هو الذى يغل يدى عن المساس به .. وهكذا ترين الفرق بين شعورى وشعوره : فلو كان فى مكانى ، وكنت فى مكانه ـ برغم اننى أمقته مقتا أحال حياتى إلى مرارة متصلة ! ـ لما رفعت عليه يدا . ربما كنت لا تصدقين ما اقول ، كما هو ظاهر فى محياك ، ولكن الحق اننى ما كنت لأحرمه من صحبتها طالما كانت راغبة فيها ! .. اما فى الحظة التى تكف فيها عن التعلق به ، فانى امزق قلبه تمزيقا ، وانهل من دمه حتى ارتوى !.. ولكن إلى ان يحدث ذلك ـ (وإذا لم تصدقينى فانك لا تعرفيننى حقا) ـ إلى ان

يحدث ذلك فانى افضل ان أموت موتا بطيئا قبل ان أمس شعرة واحدة من رأسه !

فقاطعته قائلة : « ومع ذلك فانك لا تتورع عن تحطيم كل أمل فى شفائها التام ، بإقحام نفسك على ذاكرتها الآن ، بعد أن اوشكت على ان تنساك ، وإقحامها هى فى دوامة جديدة من المتاعب والمنازعات ! »

ـ وهل تزعمين أنها اوشكت على نسيانى ؟ .. اواه يا نللى ! .. انك تعلمين أن ذلك غير صحيح ، وانها لم تنسنى قط . وانت تعلمين ـ كما اعلم ـ انها إذا فكرت فى لينتون مرة ، تفكر فى الف مرة ! .. ولقد ظننت شيئا من هذا القبيل فى فترة من اشقى أيام حياتى ، وكان هذا الظن لا يفتأ يراودنى عندما عدت إلى هذه الأنحاء فى الصيف الماضى . ولكن ما من شىء يجعلنى اتقبل هذه الفكرة الفظيعة مرة اخرى ، إلا أن اسمعها تؤكدها لى بنفسها . وعندئذ ان يكون لينتون شيئا فى ناظرى ، ولا هندلى ، ولا أى حلم من تلك الأحلام التى طالما اشتهيتها .. عندئذ سوف ينطوى مستقبلى كله تحت كلمتين : الموت ، والجحيم .. سوف يصبح وجودى كله جحيما إذا فقدتها ! .. ومع ذلك فقد كنت غرا انه عندما تصورت لحظة انها تقدر تعلق ادجار بها اكثر مما تقدر تعلقى انا بها .. وإذا كان يحبها بكل ما فى كيانه الضئيل من قوة ، فلن يحبها فى مدى ثمانين عاما كحبى لها يوما واحدا ! وان لكاترين قلبا عميقا كقلبى ، والأيسر ان تجمعى مياه البحر فى معلف الجواد هذا ، من ان يستأثر ادجار بعاطفتها كلها !

هراء !.. إنه لا يكاد يسمو درجة فى الاعزاز لديها عن كلبها او جوادها !.. إنه لا ينطوى على شىء يجعله محبوبا ، مثلى ، فكيف تستطيع ان تحب فيه شيئا ليس من خصائصه ؟

فصاحت ايزابيلا فى اندفاع مفاجىء :

ـ إن كاترين وادجار يتبادلان الحب كأى اثنين من الناس . وليس من حق أحد أن يتحدث عنهما على هذا النحو . كما انني لا استطيع السكوت على سماع اخى يبخس قدره إلى هذا الحد !

فاجابها هيثكليف فى ازدراء :

إن أخاك مولع بك اشد الولع ايضا ، اليس كذلك ؟ .. ومع ذلك فإنه يتنكر لك ويتركك تهيمين على وجهك فى الدنيا تحت رحمة الأقدار ، فى سهولة عجيبة !

ـ إنه لا يدرى شيئا عما اقاسيه من آلام ، لانني لم اخبره بذلك ..

ـ إذن فقد اخبرته بشىء آخر .. لقد كتبت إليه ، اليس كذلك ؟

ـ لقد كتبت إليه لأخبره بزواجى ، وقد رأيت خطابى بنفسك ..

ـ ولم تكتبى شيئا آخر منذ ذلك الحين ؟

ـ كلا ..

فتدخلت قائلة : « ان سيدتى الشابة تبدو حزينة وفى حالة سيئة بسبب تغير حالتها . والظاهر ان حب « بعض

الناس » قد تضاءل كثيرا بالنسبة إليها . وربما كان فى وسعى ان أحدس من هم هؤلاء الناس ، ولكنى لن اسميهم ! » .

فقال هيثكليف : « احسب ان الذى تضاءل هو حبها هى ، فقد فسد خلقها حتى غدت مجرد امراة مهملة مشاكسة . بل لقد تعبت سريعا من محاولة إدخال السرور على ، على نحو غير مألوف . وقد يصعب عليك تصديق ما اقول ، ولكنها فى صبيحة يوم عرسنا نفسه كانت تبكى وتريد العودة الى منزلها ! .. ولكنى سوف أريها كيف نوطن نفسها على العيش فى هذا المنزل ، والرضى بما قسم لها فيه ، وسوف أعمل بوسائلى الخاصة على منعها من إلحاق العار بى بتجوالها خارجه ! » .

فأجبته قائلة : « حسنا يا سيدى . ارجو ان تدخل فى اعتبارك ان مسز هيثكليف اعتادت ان تجد من يعنى بها ويقوم بخدمتها ، وانها نشأت وربيت كابنة وحيدة مدللة بسارع الجميع إلى خدمتها . لذلك ينبغى ان تحضر لها وصيفة ترعاها وتعمل على تنظيف المنزل وترتيبه . كما ينبغى ان تحسن معاملتها وأن تكون بها رفيقا ، فمهما كان رايك فى مستر ادجار ، فإنك لا تستطيع ان تشك فى قدرتها على العواطف القوية ، وإلا لما تركت الراحة والرفاهية والأصدقاء فى منزلها القديم وأنت راضية لتعيش معك فى برية موحشة كهذا المنزل ! » .

ـ لقد هجرت ذلك كله تحت تأثير الأوهام التى صورتنى فى عينيها كبطل من ابطال القصص والروايات الغرامية ،

متوقعة أن تجد من إخلاصى ووفائى وشهامتى ما يشبع رغباتها إلى درجة غير محدودة . وإن إصرارها الأحمق على اعتناق فكرة خيالية عن خلقى ، وتصرفها الأخرق على أساس تلك الاحاسيس التى كانت تنميها وتغذيها فى نفسها ، ليجعلنى انظر إليها كمخلوق ليست به ذرة من العقل . ولكنى احسبها قد بدات تعرفنى على حقيقتى اخيرا ! .. فلم اعد ارى منها تلك البسمات البلهاء ، ولا تلك الحركات السخيفة التى تشكل بها وجهها ، والتى كانت تثيرنى بها فى بادىء الأمر . كما لم اعد المح عليها ذلك العجز الأخرق عن تمييز ما إذا كنت جادا أم هازلا عندما كنت ابدى لها رأيى فيها وفى افتتانها بى ! .. ولقد كان جهدا باهرا من الفطنة وبعد النظر أن تكتشف اننى ما احببتها قط ! .. فقد كنت اعتقد ، يوما من الأيام ، أن أية دروس تتلقاها على يدى لا يمكن ان تكفى لكى تعى ذلك وتفهمه . ومع ذلك فيبدو انها قد وعته إلى حد ما ، إذ اعلنت لى هذا الصباح ـ كما لو كانت قد وقفت على اكتشاف مروع ـ اننى قد نجحت فعلا فى إثارة كراهيتها لى ! .. وهذا لعمرى عمل جبار يحتاج إلى قوة خارقة كقوة هرقل ! .. ولو امكن انامه لاستحق منى الشكر والحمد ! .. فهل يوسعنى أن اثق فى بذكيدك هذا يا ايزابيلا ؟ أانت واثقة حقا من انك تكرهيننى ؟ وهل لو تركتك وحدك يوما أو بعض يوم ، لا تعودين إلى ضارعة باكية ؟.. واحسب انها كانت تود لو تظاهرت بالحنان والرقة أمامك يا نللى ، فإن كشف الحقيقة عارية مجردة لما يجرح كبرياءها وغرورها ، ولكنى لا أبالى لو عرف الناس جميعا أن

الحب كان من جانبها وحدها ، وانني ما كذبت عليها أو تظاهرت بحبها قط . وليس فى وسعها أن تتهمنى بأننى اظهرت لها رفقا ولينا كاذبين خداعين ، فإن اول شىء رأته منى عندما غادرت (الجرانج) هو أننى شنقت كلبها الصغير ، ولما توسلت إلى أن أبقى عليه ، كانت أولى كلماتى التى نطقت بها اننى أعربت عن رغبتى فى شنق كل من يمت إليها بصلة ، إلا شخصا واحدا ! .. ولعلها اعتبرت هذا الاستثناء منصبا عليها هى ! .. ولكن قسوتى ووحشيتى لم تثر الاشمئزاز فى نفسها ، واحسب أن فى اعماقها إعجابا فطريا بها طالما ظل شخصها الغالى بمنأى عن الأذى ! .. والآن ، الا ترين أن هذه الكلبة الذليلة الحمقاء قد بلغت أعلى ذرى السخف ، وأروع آيات الغباء عندما راودها ذلك الحلم الأخرق بأننى يمكن أن أحبها ؟ .. أخبرى سيدك ، يا نللى ، بأننى لم الق قط فى حياتى بأسرها ، شيئا حقيرا خسيسا مثلها .. بل إنها لتشين اسم لينتون . لقد كنت اخفف من قسوتى احيانا ـ لأن التفنن كان يعوزنى فى إستنباط وسائل تعذيبها ـ فكنت أتراخى فى اختبار اقصى ما يبلغه احتمالها ، ومع ذلك كانت تزحف على ركبتيها فى خضوع وتذلل . ولكن أخبرته ايضا أن يريح قلبه الأخوى وسلطته القضائية ، فاننى التزم حدود القانون بدقة بالغة ، متجنبا حتى هذه اللحظة كل ما يعطيها الحق فى طلب التفرقة بيننا . والأكثر من ذلك انها لن تشكر احدا على إبعادها عنى ، ولكنها إذا رغبت فى الذهاب ، فعلى رسلها ! .. فإن المضايقات التى يثيرها محضرها النكد ، تطغى على المتعة المشتقة من تعذيبها ..

فقلت له : « هذا يا مستر هيثكليف كلام رجل مجنون ، واغلب الظن ان زوجتك قد اقتنعت بجنونك ، ولهذا السبب احتملت عشرتك حتى الآن ! اما وقد قلت الآن إن لها الخيار فى الذهاب ، فلا شك فى انها سوف تفيد من هذا التصريح .. واحسب يا سيدى انك لست مفتونة بسلوبة اللب بحيث تبقين معه بملء اختيارك ، اليس كذلك ؟ » .

فانبعثت ايزابيلا تقول ، وقد تطاير من عينيها شرر الحقد والغيظ ، حتى لم يعد لدى اى شك ، عند رؤيتهما وفهم التعبير الذى ارتسم فيهما ، فى النجاح التام الذى كللت به محاولات زوجها ليجعلها تمقته :

ـ حذار يا ايلين ! لا تصدقى كلمة واحدة مما يقول .. إنه شيطان كذوب ، بل وحش تجرد من صفات البشر ! .. لقد اخبرنى مرة قبل الآن ان بوسعى ان اتركه ، فاقدمت على المحاولة ، ولكنى لا اجرؤ الآن على إعادتها مرة اخرى ! .. فقط عديني يا ايلين الا تذكرى كلمة من حديثه الشائن لاخى او لكاترين .. فمهما ادعى امامك ، فإنه إنما يسعى لإثارة البأس والقنوط فى نفس ادجار ، ويقول إنه تزوج منى حتى تكون له السيطرة عليه .. ولكنه لن ينال هذه السيطرة ، فسوف أموت قبل ان يحقق امنيته هذه ! .. وشد ما ارجو ، وادعو الله ، ان ينسى حذره الشيطانى مرة ، فيقتلنى .. فإن المتعة الوحيدة التى اتصورها ، هى ان أموت ، او اراه ميتا !

فقال هيثكليف : « صه ! .. كفى هذا الهراء الآن . وعليك يا نللى أن تذكرى كلماتها هذه إذا ما دعيت للشهادة فى المحكمة

.. ثم تأملى هذه السحنة المقلوبة ! لقد قاربت الدرجة التى تعجبنى وتوافقنى ! .. كلا يا ايزابيلا ، انك لا تصلحين الآن لحماية نفسك ، ولا تؤمنين عليها . ولما كنت حاميك الشرعى ، فلابد لى من حجزك تحت حراستى ، مهما كان هذا الالتزام بغيضا منفرا . والآن ، اصعدى إلى الطابق العلوى ، فإن لدى شيئا اريد ان اقوله لايلين دين سرا . كلا ، ليس هذا هو الطريق ، إنما قلت لك اصعدى ! .. لماذا ؟ تعالى اريك طريق الصعود يا طفلتى العزيزة ! » .

ثم امسك بها ، وراح يجرها حتى طوح بها خارج الحجرة ، وعاد ليغمغم قائلا : « إننى خلو من الشفقة ، مجرد من الرحمة ! .. وكلما ازدادت الديدان تلويا وتوجعا ، ازداد حنينى إلى سحقها وإخراج احشائها ! .. ارايت الطفل عندما تنبت اسنانه ، وكيف يظهف على العض والمضغ ؟ .. ان بى لهفة معنوية مماثلة ! .. ولكن طحنى وتحريق اسنانى يزدادان قوة وحمية ، بنسبة ازدياد الالم بالفريسة ! » .

فقلت وقد اخذت تبعتنى من المشجب : « وهل تفهم لكلمة الشفقة معنى ؟ .. بل هل شعرت قط فى حياتك بلمسة منها فى قلبك ؟ » .

فتاطعنى قائلا ، وهو يرى عزمى على الرحيل : « ضعى هذه جانبا ، فلم يحن وقت انصرافك بعد . والآن اسمعى يا ايلين : إننى لا بد لى من ان اقنعك ، او ارغمك ، على مساعدتى فى تحقيق ما عقدت عليه العزم من مقابلة كاثرين ، بغير إمهال او توان . واقسم لك إننى لا اضمر شرا او ضرا ،

وليس بى من رغبة فى إثارة المشاكل ، او إغضاب مستر لينتون او إهانته .. فكل ما اريده هو ان اسمع من فم كاثرين كيف تجد نفسها الآن ، ولماذا تعرضت لهذا المرض الشديد ، وان اسالها إن كان بوسعى ان اؤدى لها خدمة او اكون ذا نفع لها على اية صورة . لقد قضيت فى حديقة (الجرانج) ليلة الأمس ست ساعات متوالية ، وسوف اعود إليها الليلة ايضا . بل اننى لن اكف عن ارتياد المكان كل ليلة ، وكل يوم ، حتى اجد فرصة لدخوله . ولو التقى بى ادجار لينتون ، فلن اتردد فى ان اصرعه ، واكيل له من الضربات ما يكفى لبقائه بلا حراك مدة بقائى معها ! .. اما إذا تعرض لى خدمه ، فسوف ارغمهم على مغادرة المنزل مهددا إياهم بهذا المسدس . ولكن الا ترين من الأفضل ان نمنع اسباب احتكاكى بهم او بسيدهم ؟ .. ان فى وسعك ان تفعلى ذلك فى يسر . سوف انذرك بحضورى ، وعندئذ يمكن لك ان تهيئى لى سبيل الدخول ، دون ان يحس بى احد ، بمجرد ان تجديها بمفردها ، ثم ترقبين المكان حتى ابرحه . وثقى ان ضميرك سيرتاح إلى ذلك تماما ، لانك فى الواقع إنما تحولين دون وقوع اضرار كثيرة ! » .

فاعترضت على ادائى دور الخائنة فى منزل مخدومى ، فضلا عن أننى بذلك إنما استحث قسوته وأنانيته على تدمير هدوء مسز لينتون وراحتها ، مرضاة له وإشباعا لرغباته .. ثم اردفت قائلة :

— إن اى حادث عادى يحدث لديها اضطرابا اليما ، فقد

أصبحت أعصابها كلها شديدة التوتر ، ولا يمكنها ان تحتمل المفاجأة . إننى واثقة من ذلك ، فلا تزدد إلحاحا وإصرارا يا سيدى ، وإلا اضطررت لإخبار سيدى بتدبيراتك ، وسوف يتخذ الإجراءات الكفيلة بحماية منزله وساكنيه من مثل هذا الطفل غير المرغوب فيه !

فصاح هيثكليف : « فى هذه الحالة سوف اتخذ انا الإجراءات الكفيلة بسجنك هنا يا امراة ! .. فلن تغادرى (مرتفعات ويذرنج) حتى صباح الغد . وإنها لخرافة سخيفة ان تزعمى أن كاثرين لا يمكن أن تحتمل رؤيتى . أما مفاجأتى لها ، فهذا أمر لا أوده ، وعليك ان تعديها للقائى ، وتسالينى الإذن لى بالدخول .. ثم انك تقولين إنها لا تذكر اسمى قط ، وان أحدا لا يذكره امامها .. فلمن تريدين ان تذكر اسمى ما دام الحديث عنى يعد محرما فى منزلها ؟ .. إنها تظنكم جميعا جواسيس زوجها عليها . اجل ، لست اشك انكم حولتها كرباتية الجحيم ! .. وانى احس فى صمتها ، كأى شىء آخر من احوالها الآن ، مبلغ ما تعانيه هناك وتشعر به . وانت تقولين إنها غالبا ما تبدو قلقة لا تستقر على حال من اللهفة والتوجس ، فهل يعد ذلك دليلا على الهدوء الذى لا تريدين منى ان أعكر صفوه ؟ .. وقد تكلمت عن عقلها المضطرب ، فكيف يمكن ان تكون غير ذلك ، بحق الشيطان ، وهى تقاسى هذه العزلة المروعة ؟ .. ثم ذلك المخلوق التافه الحقير الذى يرعاها بدافع من الواجب والإنسانية .. من الشفقة والإحسان ! .. ان بوسعه أن يغرس شجرة بلوط فى اصيص زرع صغير ، ويتوقع منها ان تنمو وتترعرع ، إذا تصور أنه يستطيع ان يرد إليها قواها وصحتها فى تربة رعايته التافهة الضحلة . والآن ، دعينا ننتهى من الأمر حالا ، فهل تفضلين البقاء هنا ، وتتركيننى اشق طريقى إلى كاثرين فوق جثث اينتون وخدمه ؟ .. أم تكونين صديقتى ، كما كنت دائما حتى الآن ، فتفعلين مارجونك أن تؤديه لى ؟ .. ولكن عليك أن تختارى احد الطريقين على الفور ، لأننى لا ارى سببا يدعمنى إلى التردد والتباطؤ دقيقة أخرى إذا كنت تصرين على التشبث بعنادك وسوء خلقك ! » .

حسنا .. لقد ظللت أجادله واتوسل إليه طويلا ، يا مستر لوكوود ، ورفضت رفضا قاطعا كل ما طلبه منى اكثر من خمسين مرة ! .. ولكنه ارغمنى اخيرا ، بعد جدال طويل ، على اتفاق بيننا ، فتعهدت له بان احمل خطابا منه إلى سيدتى ، ووعدته ـ فى حالة موافقتها ـ بان ابلغه بغياب سيدى عن المنزل ، فى اول مرة يغيب عنه فيها ، والموعد الذى يستطيع فيه الحضور ودخول البيت كيفما شاء .. ولكنى لن اكون هناك ، كما أن زملائى الخدم سيخلون الطريق بالمثل . فهل كان ما فعلته خطأ ام صوابا ؟ .. اغلب الظن انه كان تصرفا خاطئا ، وإن كان من ناحية اخرى نافعا مثمرا ، فقد ظننت أننى بامتثالى لرغباته انما احول دون انفجار الموقف من جديد . كما ظننت ان ذلك اللقاء قد يحدث رد فعل طيب فى مرض كاثرين العقلى . ولكنى عدت فتذكرت انتهاز مستر ادجار الصارم لى وتحذيره إياى من نقل القصص والاحاديث .

ورحت أحاول التهوين من شأن المخاوف التى تنازعتنى من جراء هذا الأمر ، بأن أخذت أؤكد لنفسى ، مرة بعد مرة ، أن هذه الخيانة لثقة سيدى ـ إذا كان مسلكى يستحق هذه التسمية القاسية ـ ينبغى حتما أن تكون الأخيرة . وكانت رحلة العودة إلى الدار أشد كآبة وحزنا من رحلة الذهاب ، وانتابتنى الهواجس من كل ناحية قبل أن أقنع نفسى ، أو ارغمها ، على وضع الرسالة بين يدى مسز لينتون .

« ولكن ها هو ذا كينيث قد حضر ، وسأنزل إليه لأخبره بتقدمك الحثيث فى طريق الشفاء . اما قصتى « المملة » ، فلترجئها الآن ، وسوف نصلح لقطع الوقت فى صباح يوم آخر »

وبينما كانت المرأة الطيبة تنزل لاستقبال الطبيب ، كنت اقول لنفسى : أجل ، إنها قصة مملة ، وكئيبة موحشة فى الوقت نفسه ، وليست من النوع الذى كنت خليقا باختياره لتسليتى . ولكن لا بأس ، فلسوف أستخرج أطيب العقانير من أعشاب « مسز دين » المريرة !.. ولكن على ـ قبل كل شىء ـ أن أحذر ذلك السحر الذى يكمن فى عينى كاترين هيثكليف البراقتين .. فسوف أجد نفسى فى ورطة عجيبة لو سلمت قلبى لهذه الشابة الحسناء ، ثم تبين أن الابنة ليست إلا صورة طبق الأصل من أمها !

* * *

الفصل الخامس عشر

مضى أسبوع آخر .. وازدادت بى الأيام اقترابا من الصحة الكاملة ، والربيع البسام . وقد غرفت من سماع قصة جارى كاملة ، فى جلسات مختلفة كانت مديرة المنزل تخلطها بين مشاغلها العديدة الأخرى . وسوف أمضى فى سردها ، مستخدما كلماتها ذاتها ، مع قليل من التركيز ، فانها فى الواقع قصاصة بارعة ، ولا أحسبنى قادرا على تحسين أسلوبها .. قالت :

« فى ذلك المساء ، مساء زيارتى « للمرتفعات » ، كنت احس بوجود مستر هيثكليف قريبا من المنزل ، كما لو كنت اراه بعينى ، فتجنبت الخروج من الدار ، لأننى كنت ما أزال احمل خطابه فى جيبى ، وكنت راغبة عن سماع المزيد من الوعيد أو التأنيب . كنت قد قررت الا اسلم الخطاب حتى يغادر السيد المنزل إلى اى مكان ، لأنه لم يكن فى وسعى أن أحدس كيف يكون اثره على كاترين . وكانت النتيجة انه لم يصل إليها إلا بعد انقضاء ثلاثة ايام كاملة . وكان الرابع يوم الأحد ، فاحضرت الخطاب إلى حجرتها بعد أن ذهبت العائلة كلها إلى الكنيسة ، ولم يبق فى الدار ـ عداى ـ إلا رجل من الخدم ترك ليساعدنى فى الأعمال المنزلية . وكنا عادة نعمد إلى اغلاق الأبواب خلال ساعات القداس ، ولكنى يومئذ انتهزت فرصة دفء الجو وروعته ، فتركتها مفتوحة جميعا ، كما أننى ـ وفاء بوعدى ، إذ كنت أعرف تماما من الذى سوف يقدم إلينا ـ

قلت لرفيقى إن السيدة تشتهى البرتقال ، وأن عليه أن يسرع إلى القرية عدوا فيحضر بعضا منه ، على أن ندفع ثمنه فى اليوم التالى . وما أن غادر البيت حتى صعدت إلى الطابق العلوى.

« كانت مسز لينتون تجلس فى نجوة النافذة كالمعتاد ، وترتدى ثوبا فضفاضا أبيض اللون ، وتغطى كتفيها بشلة خفيفة . وكان شعرها الغزير الطويل قد قص مرفوعا فوق رأسها فى بداية مرضها ، أما الآن فكان ممشطا فى بساطة ، وتنسدل خصلاته فى تموجه الطبيعى فوق صدغيها وعنقها . وكان مظهرها قد تبدل تماما ـ كما انبأت هينكليف ـ ولكنها عندما تكون هادئة فان هذا التبدل تبدو فيه مسحة من جمال ملائكى لا عهد لدنيا البشر بمثله !.. وكان البريق المتألق فى عينيها قد خبا ، وبدت مكاته عذوبة حالمة حزينة . ولكن هاتين العينين لا توحيان بأنهما تنظران إلى الأشياء المحيطة بها ، وإنما تبدوان دائما وكأنهما تتطلعان إلى ما وراءها ، تتطلعان إلى بعيد وراء كل شىء ، حتى ليحق لك أن تقول انهما تتطلعان إلى ما وراء هذا العالم كله !.. أما شحوب وجهها ـ الذى اختفى هزاله ومنظره الهشيم منذ أن اكتسى بشىء من اللحم ـ والتعبير الغريب المرتسم فى محياها من أثر حالتها العقلية ـ فانهما وإن كانا ينمان ، على نحو اليم ، عن الأسباب التى ادت إليهما ، فقد كانا يزيدان من الشعور بالأسى الذى يثيره مرآها فى النفوس . أما أنا فكنت أجد فيهما ـ واحسب أن أى شخص ينظر إليها كان يجد ذلك مثلى ـ ما ينقض اية ادلة ظاهرية أخرى على نقاهتها وقرب شفائها ، وإنما يسمها بطابع الشخص الذى قضى عليه بالفناء !

« وكان على النافذة بجوارها كتاب مفتوح تحرك النسمات الهادئة أوراقه بين آن وآخر . وفى يقينى أن لينتون هو الذى وضعه هناك ، إذ انها لم تكن تحاول قط أن تسلى نفسها بالقراءة ، أو تشغل نفسها بأى عمل آخر . وكم من ساعة كان يقضيها محاولا أن يثير انتباهها إلى شىء مما كان موضع تسليتها فى الماضى . وكانت تعى ما يرمى إليه ، فاذا كانت فى حالة طيبة ، فانها تحتمل محاولاته فى هدوء واستكانة ، مكتفية بإظهار عدم جدواها بما ينبعث منها بين وقت وآخر من تنهد الضجر والسأم ، حتى تنتهى أخيرا إلى إيقاف مساعيه بابتسامة حزينة ، أو قبلة خاطرة . أما فى الحالات الأخرى ، فانها تتحول عنه فى نفور وعناد ، وتخفى وجهها بين راحتيها ، أو تدفعه عنها فى حنق وغضب .. فكان عندئذ يحرص على أن يتركها وحدها ، مدركا عن يقين انه قد اخطأ الصواب فى مسعاه .

« وكانت اجراس كنيسة (جيمرتون) لا تزال تدق من بعيد ، كما كان الخرير الهادىء لقنوات الوادى يصافح الأذن وديعا رقيقا ، فكان بديلا جميلا لذلك الحفيف الذى لم يحن موعده بعد ، حفيف أوراق الشجر فى الصيف ، والذى كان يطغى على موسيقى القنوات عند ما تورق الأشجار حول (الجرانج) .. وكان خرير الماء يسمع دائما فى (مرتفعات ويذرنج) كلما سكن الهواء إثر انهمار المطر طويلا ، أو جريان الثلوج الذائبة فوق التلال . وكانت كاثرين تفكر فى (مرتفعات ويذرنج) ، وهى تصغى إلى ذلك الخرير الموسيقى ـ إن كانت تفكر فى شىء أو تصغى إلى شىء على الاطلاق ! ـ ولكن كانت فى عينيها

تلك النظرة الجوفاء الغامضة التى وصفتها من قبل ، والتى لم تكن تعبر عن إدراك لشىء من الأشياء المادية سواء عن طريق السمع أم البصر ..

« ووضعت الخطاب فى رفق فى يدها المستقرة على ركبتها ، وقلت :

— هذا خطاب لك يا مسز لينتون .. وينبغى أن تقرئيه على الفور ، لأنه يتطلب ردا .. هل أفض اختامه ؟

« فلم تغير اتجاه نظراتها ، وقالت فى اقتضاب : « نعم .. ».

« وفتحت الخطاب ، وكان موجز العبارة ، ثم استطردت قائلة : « اقرئيه الآن ! » .

« غير أنها جذبت يدها بعيدا ، فسقط الخطاب على الأرض .. فالتقطته ثانية ووضعته فى حجرها ، ووقفت انتظر حتى يروق لها أن تنظر إليه ، لكن ترقبى لهذه الحركة طال على غير جدوى ، حتى اضطررت إلى متابعة كلامى قائلة : « هل تريدين أن أقراه عليك يا سيدتى ؟.. إنه من مستر هيثكليف ! » .

« فأجفلت ، ولاحت فى عينيها بارقة من عودة الذاكرة ، وتراءت فى محياها دلائل النضال فى سبيل تنظيم أفكارها . ثم رفعت الخطاب ، وبدا عليها أنها تتصفحه فى إمعان ، حتى إذا ما بلغت الإمضاء ، تأوهت فى مرارة . ومع ذلك فقد وجدت أنها لم تدرك دلالته تماما ، لأننى عندما رغبت إليها فى أن تسمعنى جوابها ، اكتفت بأن أشارت إلى الاسم ، وراحت تتفرس فى وجهى فى لهفة حزينة متسائلة .. فحدست حاجتها

إلى من يشرح لها الأمر ، وقلت : « حسنا .. إنه يود أن يراك .. وهو الآن فى الحديقة ، يطيف على معرفة الإجابة التى أحملها إليه .. » .

« وكنت قد لاحظت أثناء كلامى أن كلبا ضخما — كان يقبع تحتنا فى الحديقة مستلقيا فى استرخاء فى أشعة الشمس الساطعة فوق العشب الأخضر — قد نصب أذنيه فجأة ، وبدا يهم بالنباح ، ولكنه ما لبث أن أرخاهما وهو يعلن ، بهزات ذيله ، عن مقدم شخص لا يعده غريبا عن المكان .. ومالت مسز لينتون إلى الأمام ، وهى ترهف السمع ، وقد حبست أنفاسها . وفى اللحظة التالية سمعت وقع أقدام تعبر الردهة . كان المنزل المفتوح من قوة الاغراء لهيثكليف بدخوله ، بحيث لم يستطع مقاومته .. وأغلب الظن أنه حسبنى قد نكثت بعهدى له ، فصمم على الاعتماد على جراته ! .. وكانت كاثرين متعلقة الأنظار بباب حجرتها ، فى لهفة واشتياق شديدين . غير أن القادم لم يصب الحجرة الصحيحة فى بادىء الأمر ، فأشارت إلى أن أستقبله ، ولكنه اهتدى إليها قبل أن أبلغ الباب . وفى خطوات وثابة ، كان يقف إلى جانبها ، ويضمها إلى صدره فى قوة !

« ولقد لبث أكثر من خمس دقائق لا ينطق بكلمة ، ولا يرخى ذراعيه عن احتضانها ، وقد راح فى خلالها يمطرها بعدد من القبلات أحسب أنه لم يمنح أحدا أكثر منه فى حياته قط من قبل !.. ولكنى أشهد أن سيدتى هى التى قبلته أولا . ورأيت فى جلاء أنه لم يستطع احتمال النظر إليها ، لفرط المه

وفى خطوات وثابة ، كان يقف الى جانبها ، ويضمها الى صدره فى قوة ! ..

الصارخ . كان قد ادرك ـ كما ادركت انا ـ منذ ان وقعت انظاره عليها ، انه لم يكن ثمة امل فى شفائها ، وانه قد قضى عليها بالموت ، لا شك فى ذلك ولا ريب !

« وكان اول ما نطق به ، هو ان راح يهتف فى لوعة دون ان يحاول إخفاء يأسه وأساه : « اواه ياكاثى ! .. اواه يا حبيبتى! .. كيف استطيع احتمال ذلك ؟ » .. وكان عندئذ يحدق النظر إليها فى إمعان شديد ، بحيث ظننت ان تركيز نظراته سوف يجلب البكاء إلى عينيه .. ولكنهما كانتا تتقدان بالعذاب والألم ، وقد تحجرتا فلا تنديان بالدموع .. فاسندت كاثرين كتفيها إلى ظهر المقعد ، وراحت تبادله نظرته وقد قطبت حاجبيها . كان مزاجها اشبه بدوارة الريح ، لاهوائها الدائمة التقلب والتغير .. وما لبثت ان قالت :

ـ وماذا الآن ؟ .. لقد حطمتها قلبى ، انت وادجار ، يا هيثكليف ! .. ثم تأتيان كلاكما تتباكيان وتنعيان على ما فعلتماه بى ، كأنكما انتما اللذان تستحقان الإشفاق والرثاء .. ولكنى لن اشفق عليك او ارثى لك ! لست انا التى تفعل ذلك . لقد قتلتنى ، واحسبك افلحت فى ذلك . يا لله ! ما اقواك ! .. ترى كم من السنين تنوى ان تعيشها بعد ان ارحل ؟

« وكان هيثكليف يركع على إحدى ركبتيه بجوارها ليستطيع احتضانها ، فحاول النهوض ، ولكنها امسكت بشعره وتشبثت به لتبقيه فى مكانه ، ثم استطردت تقول فى مرارة : « شد ما أود ان اظل ممسكة بك حتى نموت معا ! .. ولن

أبالى بما تعانيه من الم .. بل لست أبالى شيئا بآلامك جميعا. ولماذا يريك لا تتعذب ولا تتألم ؟ .. لقد تعذبت أنا وذقت الوان الالم .. ثم هل تراك تنسانى ؟ .. هل ستكون سعيدا عندما اكون تحت اطباق الثرى ؟ هل تراك تقول بعد عشرين عاما : « هذا قبر كاثرين ايرنشو . لقد احببتها منذ عهد بعيد ، وشقيت بفقدها ، ولكن ذلك قد مضى وانقضى .. فقد احببت الكثيرات منذ ذلك الحين ، واطفالى الآن أحب إلى نفسى مما كانت هى فى يوم من الأيام . وعندما تحين ساعتى ، فلن يسرنى انى ذاهب إليها ، بل سوف يسوؤنى ان اضطر إلى تركهم ! » .. هل هذا ما ستقوله يا هيثكليف ؟ » .

« فانتزع رأسه من قبضتها فى عنف ، وكانت اسنانه تصطك وهو يصيح : « يريك لا تعذبينى حتى يصيبنى الجنون كما اصابك ! » .

« كان الاثنان ، فى نظر المشاهد العادى ، يمثلان صورة غريبة مخيفة .. وكان يخلق بكاثرين ان تقدر ان السماء سوف تكون منفى رهيبا لها ، ما لم تطرح عنها ـ مع جسدها الفانى ـ نفسيتها الممقوتة ايضا .. فقد كانت اساريرها الآن تحمل طابعا من الحقد والضغينة فى وجنتيها الشاحبتين ، وشفتيها الباهتتين ، وعينيها اللتين تنقدان بشرر الانتقام ! .. وكانت تطبق اصابعها على خصلة من غدائره التى كانت تمسك بها . أما رفيقها فقد اتكأ ، عند نهوضه ، على إحدى يديه ، والمسك بذراعها الأخرى ، فلما رفع يده عنها ادركت ان حصيلته من الرقة التى تستلزمها حالتها كانت من القلة بحيث كان على

بشرتها الشاحبة اربعة خطوط زرقاء عميقة ! .. واستطرد يقول فى وحشية :

ـ هل تملكك شيطان حتى تخاطبينى على هذا النحو وانت مشرفة على الموت ؟ .. وهل قدرت ان كلماتك جميعا سوف تظل مطبوعة فى ذاكرتى ، ولا تفتأ تحفر فيها وتزداد عمقا بعد ان تكونى قد تركتنى ؟ .. إنك لتعلمين مدى كذبك عندما تقولين إننى قتلتك . وإنك لتعلمين ، ياكاثرين ، انتى استطيع ان انساك إذا ما استطعت ان انسى كيانى ووجودى .. افلا يكفى اثاتيتك الجهنمية انك بينما تنعمين بالراحة والسكينة ، سوف اطوى انا فى عذاب الجحيم ؟

« فاجابت كاثرين فى انين اليم : « ولكنى لن انعم بالراحة او السكينة » .. وعادت إلى الشعور بضعفها المدنى عندما اخذ قلبها يخفق فى عنف ، وفى ضربات غير منتظمة كانت ترى وتسمع من بعد ، من جراء الانفعال الشديد الذى استبد بها .. فكفت عن الكلام ربثما انقضت تلك الأزمة ، ثم استطردت تقول فى رقة :

ـ إننى لا اتمنى لك عذابا اشد مما اقاسيه يا هيثكليف . كل ما اتمناه هو الا نفترق قط . ولو ضايقتك واكربتك كلمة من كلماتى فيما بعد ، فاعلم اننى احس هذا الكرب نفسه فى قبرى .. فاصفح عنى ، من أجل خاطرى ! .. تعال هنا واركع بجانبى ثانية . إنك لم تسىء إلى فى حياتك قط . واذا اسمعت فى غضبك على ، فإن ذلك سوف يكون اسوأ ذكرى لك، بما يفوق ذكرى كلماتى العنيفة . هلا اتيت إلى جانبى ؟ .. تعال .. تعال !

« فعاد هيثكليف ثانية ، ولكنه وقف خلف مقعدها ، وانحنى فوق ظهر المقعد قليلا ، إلى الحد الذى لا يمكنها معه ان ترى وجهه الممتقع من التأثر والانفعال .. وادارت رأسها إلى الوراء لتنظر إليه ، ولكنه لم يكن ليسمح لها بذلك .. فقد تحول بغتة ، وسار نحو المدفأة ، حيث وقف صامتا وقد ادار ظهره نحونا .. وتبعته نظرات مسز لينتون فى ترقب وارتياب .. وكانت كل لحظة تمر توقظ فيها احاسيس جديدة .. فلما طال الصمت ، واستطالت نظراتها ، استطردت تخاطبنى فى نبرات مليئة بمرارة الخيبة :

ـ آه ! .. ارايت يا نللى كيف انه لا يريد ان يرق لى لحظة ليحول بينى وبين القبر ! .. هذا هو مبلغ حبه لى ! .. حسنا .. لا بأس .. إن هذا ليس هيثكليف الذى اعرفه ! .. ولكنى سوف اظل احب هيثكليف الذى اعرفه ، وسوف آخذه معى فإنه قطعة من روحى !

« ثم اضافت كأنما تفكر بصوت مسموع :

ـ ثم إن اشد ما يضايقنى الآن هو هذا السجن المحطم ـ جسدى ـ الذى اعيش فيه . لقد تعبت من طول احتباسى هنا .. وأود بصبر نافد ان افر إلى ذلك العالم المحيد ، وان اظل هناك ابدا ، فلا اقتصر على النظر إليه من وراء غلالة من الدموع ، والحنين إليه من خلال جدران قلب مضنى ، وإنما ابقى فيه واعيش معه حقا ! .. ولعلك يا نللى تخالين انك افضل منى واسعد حظا ، لانك فى عنفوان قوتك وكامل صحتك! ولعلك تأسفين من اجلى وترثين لحالى ! .. ولكن كل شىء

سوف يتبدل عما قريب .. وسوف اكون انا التى ارثى لحالك .. سوف اكون بعيدة عنكم اشرف عليكم جميعا من عل .. واستطردت تحدث نفسها :

ـ كم اعجب من تباعده ، وإحجامه عن الاقتراب منى ! .. انا التى حسبته يرغب فى ذلك ويتمناه ! .. هيثكليف ، يا عزيزى .. ما ينبغى لك ان تكون غاضبا عبوسا الآن .. تعال إلى يا هيثكليف !

وفى غمرة لهفتها وشوقها نهضت واقفة ، وهى تستند إلى ذراع مقعدها .. وإزاء هذه الدعوة الحارة ، استدار نحوها وقد لاحت فى اساريره امارات اليأس المرير . وكانت عيناه الواسعتان تندیان بالدموع ، وتحدجانها بنظرات وحشية ، وصدره يعلو ويهبط فى رجفات متتابعة .. ولبثا لحظة وقد جمد كل منهما فى مكانه .. ولم ار كيف التقيا بعد ذلك ، ولكن كاثرين وثبت إلى الأمام ، فتلقاها بين ذراعيه ، والتقيا فى عناق طويل ظننت ان سيدتى لن تخلص منه على قيد الحياة قط .. والواقع انها بدت فى عينى كأنما فقدت الشعور .. والتى هو بنفسه على اقرب مقعد إليه ، وهو يحملها بين يديه ، فلما اقتربت فى عجلة لاتبين إن كانت مغشيا عليها ، كشر عن انيابه فى وجهى ، وانبثق الزبد من فمه كالكلب المسعور ، وراح يضمها إلى صدره فى غيرة بشعة .. ولم اعد اشعر بأننى فى رفقة مخلوق من البشر مثلى ، وكان من الواضح انه لن يفهمنى مهما خاطبته وقلت له .. وهكذا انتحيت جانبا وامسكت لسانى ولذت بالصمت فى حيرة شديدة ..

وما لبثت أن سكن جاشى قليلا عندما رايت كاثرين تبدر منها حركة صغيرة .. فقد رفعت يدها لتجذب إليها عنقه ، وتلصق خدها بخده وهو يحتضنها .. بينما راح يدوره يمطرها بقبلات جنونية ، وهو يقول فى ضراوة :

ـ لقد علمتنى الآن كيف كنت قاسية باكاثى .. قاسية ومنافقة ! .. فلماذا احتقرتنى ؟ لماذا خدعت قلبك وغدرت به ؟ .. إنك لن تسمعى منى كلمة واحدة تسرى عنك ، فإنك تستحقين ذلك .. انت التى قتلت نفسك .. اجل .. لك ان تقبلينى ، وان تذرفى ما شئت من الدموع .. ولك أن تنتزعى منى القبلات والعبرات .. فإنها سوف تلذعك بنارها .. وسوف تلعنك بكل قطرة فيها ! .. لقد كنت تحبيننى .. فبأى حق ، إذن ، هجرتنى ؟ .. بأى حق تخليت عنى من أجل وهم تافه شعرت به نحو لينتون ؟ .. فلا الشقاء أو الهوان أو الموت ، ولا اى شىء مما يمكن أن يصيبنا به الله أو الشيطان ، كانت لتستطيع أن تفرق بيننا .. ولكنك فعلت ما تعجز عنه كل هذه القوى ، وفعلته بملء إرادتك .. إننى لم احطم قلبك . انت التى حطمته بيدك .. وعندما حطمته ، حطمت قلبى معه ! .. إنك تربتنى قويا متين الاسر ، ولكن ذلك لتعس حظى .. فهل تظنيننى اتمنى الحياة طويلا ؟ .. وأى نوع من العيش ذلك الذى يمكن أن أحياه ، بينما أنت .. آه ! يا الهى ! .. أتراك انت تتمنين العيش بينما روحك فى قبر من القبور ؟

غرقت كاثرين بدموعها ، وبأنينها ، وقالت :

ـ دعنى وحدى .. دعنى وحدى .. إذا كنت قد أخطأت ، فهاأنذا أكفر عن خطئى بالموت . وهذا فوق ما يكفيك ! .. لقد هجرتنى ، أنت أيضا .. ولكنى لن أعاتبك او أعنف عليك .. إننى أصفح عنك .. فاصفح عنى !

ـ يا أصعب الصفح وأنا انظر إلى هاتين العينين، وأتحسس هاتين اليدين الناحلتين ! .. قبليني ثانية ، ولكن لا تدعيني ارى عينيك ! .. لقد غفرت لك كل ما فعلته بى .. فانني احب قاتلى ! .. ولكن قاتلك انت ! .. كيف يمكننى أن احبه ؟

وساد الصمت بينهما ، واختفى وجه كل منهما فى وجه الآخر ، وغسلت دموع كل منهما وجه صاحبه .. واغلب الظن ان البكاء كان متبادلا بينهما .. فإن هيثكليف كان خليقا بأن يبكى فى مناسبة عظيمة كهذه ..

وبدا القلق يتسرب إلى نفسى ، كلما مضى الوقت .. فقد كان النهار يمر سراعا ، كما عاد الرجل الذى كنت قد بعثت به إلى القرية ، من مهمته ، وبدأت أميز من بعد ، فى اشعة الشمس ناحية الغرب فوق الوادى ، جماعات من الناس تتكاثر وتتكاثف عند باب كنيسة (جيمرتون) ، فقلت :

ـ لقد انتهى القداس ، وسوف يكون سيدى هنا بعد نصف ساعة ..

فزمجر هيثكليف باللعنات والسباب ، وشدد من عناقه لكاثرين ، ولكنها لم تتحرك قط .. ولم تبض هنيهة ، حتى رايت جمعا من الخدم يجتازون الطريق نحو المتاح الذى يقع فيه المطبخ .. ولم يكن مستر لينتون يبعد عنهم كثيرا

وهو يسير خلفهم .. وفتح بنفسه البوابة الكبيرة ، واخذ يسير فى بطء واسترخاء قاصدا نحو المنزل .. ولعله كان يستمتع بهواء العصر الجميل الذى كان يترقرق كنسمات الصيف ..

عندئذ هتفت قائلة :

ـ ها هو ذا قد حضر .. فاسرع بالانصراف بحق السماء .. إنك لن تجد أحدا على الدرج الأمامى .. فاسرع بالخروج ، واختف برهة بين الأشجار ريثما يدخل المنزل ، حتى لا يراك ..

فقال هيثكليف وهو يحاول الخلاص من بين ذراعى رفيقته :

ـ لا بد لى من الذهاب الآن يا كاثى .. ولكن إذا قدر لى أن أعيش فسوف أراك ثانية قبل أن يحين موعد نومك .. لن أذهب إلى أبعد من خمس ياردات عن نافذة حجرتك ..

فتشبثت به بقدر ما سمحت لها قواها الخائرة ، وهى تجيبه :

ـ كلا .. لا ينبغى أن تذهب .. ولن تذهب ..

فتوسل إليها فى قلق :

ـ ساعة واحدة فقط !

ـ ولا دقيقة واحدة !

فازداد الدخيل القلق إلحاحا ، وقال :

ـ بل لا بد لى من الذهاب .. سوف يأتى لينتون إلى هنا حالا ..

ولقد كان بوسعه أن ينهض ، وبذلك يتخلص من قبضة أصابعها ، ولكنها ازدادت به تعلقا وازدادت أصابعها به تشبثا ، وقد لاح فى أساريرها عزم رهيب جنونى ، ثم صرخت قائلة :

ـ كلا .. لا تذهب .. لا تذهب ! .. إنها المرة الأخيرة .. ولن يقتلنا ادجار .. هيثكليف .. إننى سوف أموت .. سوف أموت ..

فصاح هيثكليف ، وهو يقوس فى مقعده :

ـ يا لك من حمقاء ! .. ها هوذا .. صه يا حبيبتى ، اسكتى ياكثرين ! .. سوف ابقى .. وإذا أطلق على الرصاص وانا جالس فى مكانى ، للفظت انفاسى الأخيرة ، وشلتاى تباركانه !

وعادا إلى عناقهما من جديد .. وسمعت وقع خطوات سيدى فوق الدرج ، فتسبب العرق البارد من جبينى ، واستبد بى الفزع ، وقلت لهيثكليف ضارعة :

ـ هل تنوى أن تصغى إلى هذيانها ؟ .. إنها لا تعرف ما تقول .. فهل تدمرها وتقضى عليها ، لأنها لم يعد لديها من العقل ما تحمى به نفسها ! .. انهض .. فما زالت فى الوقت فسحة لخلاصك .. إن هذا شر عمل شيطانى ارتكبته فى حياتك قط .. لقد قضى علينا جميعا .. السيد ، والسيدة ، والخادمة !

وكنت اعصر يدى ، وانشج بالبكاء .. وسمع مستر لينتون تلك الضجة ، فاسرع الخطى .. وفى غمرة اضطرابى وانفعالى ، سررت إذ رأيت ذراعى كاثرين تتهاويان مسترخيتين بجانبها ، ورأسها يميل إلى الأمام .. فقلت لنفسى :

ـ لقد اغمى عليها ، أو ماتت ! .. وذلك افضل كثيرا .. ولكن الأفضل منه أن تكون قد ماتت ، حتى لا تبقى طويلا عبئا على من يحيطون بها ، مجلبة للشقاء إليهم !

وانقض ادجار على ضيفه المتطفل ، وقد امتقع وجهه دهشة وغضبا .. ولست ادرى ما الذى كان يثرى ان يفعله .. فقد وضع الاخر حدا لكل ما كان يمكن حدوثه ، بان وضع بين يديه ذلك الجسد الساجى الذى يبدو خلوا من الحياة ، قائلا :

ـ انظر إليها .. وإذا لم تكن شيطانا او عدوا لدودا ، فأسعفها اولا ، ثم قل لى بعد ذلك كل ما تشاء ..

وأسرع يغادر المكان ، ويجلس فى حجرة الجلوس .. ودعاتى مستر لينتون ، فرحنا نبذل الجهود المضنية ، ونلجا إلى شتى الوسائل ، لنعيدها إلى الصواب ، حتى نجحنا فى إقامتها اخيرا .. ولكنها كانت ذاهلة اللب .. كانت تئن وتتاوه ، ولكنها لم تعرف احدا .. ونسى ادجار ، فى غمرة قلقه عليها ، صديقها البغيض .. اما انا فلم انس .. فانتهزت اول فرصة سنحت لى ، ومضيت إليه فرجوته ان ينصرف ، مؤكدة له ان كاترين احسن حالا ، وانه سوف يسمع منى فى الصباح كيف قضت ليلتها .. فقال :

ـ إننى لن امتنع عن مغادرة الدار .. ولكنى سوف ابقى فى الحديقة .. وارجوك يا نللى ان تبرئ بوعدك غدا .. وسوف تجدينى تحت اشجار الحور .. فإذا لم تفعلى فسوف اقوم بزيارة اخرى سواء اكان لينتون هنا أم لم يكن !

والقى نظرة سريعة نحو باب الحجرة المنفرج ، وإذ استوثق من أن ما ذكرته له كان يبدو صحيحا ، غادر المنزل فى خطوات سريعة ، وأخلاه من محضره المنكود ..

الفصل السادس عشر

حوالى منتصف تلك الليلة ولدت كاترين التى رأيتها فى (مرتفعات ويذرنج) .. ولدت هزيلة خامرة فى الشهر السابع من حملها .. وبعد مولدها بساعتين ، لفظت الأم انفاسها الاخيرة ! .. ماتت دون ان تسترد من الوعى ما يكفى لان تفتقد هيثكليف ، او تشعر بوجود ادجار .. وكان حزن هذا الاخير لما اصابه من الثكل ، امرا يجل عن الوصف ، وتألم النفس للحديث عنه .. كما اظهرت آثاره بعد ذلك مدى عمقه فى نفسه . وفى رايى أن ما زاد من فداحة المصاب لديه ، انه ترك بغير عقب من الذكور . وكان قلبى يعتصر حسرة والما لذلك ، وانا اتامل اليتيمة الضعيفة ، فرحت انحى باللائمة ـ فى نفسى ـ على لينتون العجوز الذى أوصى بأن تنتقل املاكه ، إذا مرضت مثل هذه الحالة ، إلى ابنته بدلا من حفيدته .. وهكذا جاءت الطفلة المسكينة ، فلم تلق من احد ترحيبا ، ولم يهش لمولدها إنسان .. فلو انها ماتت فى تلك الساعات الأولى لها فى الوجود ، لما اكترث لذلك احد قط . وقد عوضنا هذا الإهمال فيما بعد ، ولكن المنكودة استهلت وجودها بغير صديق ، مثلما يخشى ان تختتمه !

وتسلل ضوء الصباح ـ الذى كان مشرقا بهيجا خارج الدار ـ من ثنايا مصاريع نوافذ الحجرة الصامتة ، فاضفى على الفراش وشاغلته وهجا رقيقا لينا . وكان ادجار لينتون

يضع رأسه على الوسادة ، مطبق العينين ، ومحياه الناصع البياض يبدو ـ فى شحوب الموت الذى يعلوه ـ اشبه بالوجه الساجى إلى جواره ، وقد تماثلا سكونا وجمودا .. ولكن اساريره كانت تنطق فى جمودها بالالم المضنى ، على حين كان وجه الراحلة يفيض سلاما ودعة . كان جبينها ناعما وضاء ، واجفانها مطبقة ، وشفتاها تتفرجان فى ابتسامة هادئة .. وما أحسب ان أبا من ملائكة السماء كان يمكن أن يبدو اوفر منها جمالا .. وتالقى قبس من ذلك السكون المطلق الذى يحيط بها فى رقادها ، فما أحسست قط بأن عقلى عاش فى إطار اشد قداسة مما كان عليه عندما رحت اتامل تلك الصورة الصافية من الراحة الالهية ! .. ورحت ارجع فى نفسى ، عن غير قصد ، صدى الكلمات التى نطقت بها منذ ساعات قلائل ، قلت : « إنها بعيدة عنا تشرف علينا جميعا من عل .. وسواء اكانت لا تزال على الأرض ، أم انها الآن فى السماء ، فإن روحها قد رجعت إلى مستقرها ومثواها عند خالقها » .

ولست أعرف إن كانت تلك صفة اختصصت بها ، ولكن الواقع اننى قلما احس شيئا غير السعادة عندما اقوم وحدى بالحراسة فى حجرة يرفرف عليها الموت ، ما لم يقاسمنى هذا الواجب شخص خرج به الحزن عن صوابه او ملىء قلبه يأسا .. فانى ارى راحة وطمانينة لا تستطيع الأرض ولا الجحيم ان تحطمهما ، واحس باليقين فى عالم يأتى بعد ذلك ، لا نهاية له ولا ظلمات فيه .. تلك الأبدية التى يلجون ابوابها ، حيث لا تتقيد الحياة بحدود فى مدتها ومداها ، ولا الحب فى حنانه

وروعته ، ولا السرور فى عنفوانه ووفرته .. وقد تبينت فى تلك المناسبة مبلغ الاثرة والانانية فى حب مثل حب مستر لينتون ، عندما يحزن على خلاص كاثرين السعيد !!.. ومن المحقق ان المرء قد يشك احيانا ، بعد تلك الحياة المليئة بالعناد والمشاكسة والثورات التى كانت تحياها ، فيما إذا كانت تستحق ان تقاد اخيرا إلى مرفأ السلام والطمانينة .. إن المرء قد يشك فى ذلك فى سويعات التفكير الهادىء المجرد عن العاطفة ، لا فى ذلك الوقت ، امام جثمانها .. فان السكينة التى كانت ترين على ذلك الجثمان المسجى ، بدت كأنما تضمن سكينة مماثلة للروح التى كانت تسكنه !

« ترى هل تعتقد يا سيدى ان مثل هؤلاء الناس يلقون السعادة فى العالم الآخر ؟.. إننى ابذل الكثير فى سبيل معرفة ذلك .. »

ولكنى تنكبت الإجابة على سؤال مسز دين ، الذى ادهشنى وقتئذ كشىء ادنى إلى الضلالة .. فاستطردت تقول :

« إننا لو اقتفينا سبيل كاثرين لينتون ، لما حق لنا أن نظنها سعيدة .. ولكننا سوف ندعها لخالقها .. كان السيد يبدو نائما ، فجازفت بمغادرة الحجرة بعد شروق الشمس مباشرة ، وتسللت إلى حيث الهواء النقى المنعش خارج الدار .. وحسبنى الخدم قد خرجت لانفض عنى النعاس بعد حراستى الطويلة ، ولكنى فى الحقيقة إنما خرجت لارى مستر هيثكليف .. فلو انه مكث بين اشجار الحور الليل بطوله ، لما سمع شيئا من الجلبة التى قامت فى (الجرانج) .. اللهم إلا إذا كان قد

سمع وقع حوافر جواد الرسول الذى بعثنا به إلى (جيمرتون) .. ولو أنه اقترب من الدار ، لأدرك من الأضواء المنتظمة هنا وهناك ، والأبواب الخارجية وهى تفتح وتغلق ، أن الأمر لم يكن على ما يرام فى الداخل . وكنت أود أن أجده ، ومع ذلك كنت أخشى هذا اللقاء .. كنت أحس بشناعة الأنباء التى يجب أن أنقلها إليه ، وتمنيت أن ينتهى ذلك الموقف سريعا ، ولكنى لم أكن أعرف كيف أقولها له ! .. ووجدته هناك ، على قيد خطوات من البستان ، مستندا إلى شجرة عتيقة ، عارى الرأس ، مليد الشعر بالندى الذى تجمع على الغصون المورقة حديثا ، والذى كانت قطراته تتساقط حوله .. وكان قد مضى فترة طويلة فى وقفته هذه ، لأننى رأيت طائرين يذهبان ويعودان ، وليس بينهما وبينه إلا زهاء ثلاثة أقدام ، وقد انهمكا فى بناء عشهما ، ولا يريان فى قربه منهما إلا ما يريان فى كتلة من الخشب ، على حين انتقلنا هاريتن عند اقترابى ..

ورفع عينيه نحوى ، وقال :

ـ لقد ماتت !.. ولم أكن بحاجة إلىّ انتظارك لأعرف ذلك .. ضعى منديلك هذا جانبا ، ولا تدعى دموعك ومخاطك يسيلان أمامى !.. لعنة الله عليكم جميعا .. إنها ليست فى حاجة إلى شىء من دموعكم !

كنت أبكى رثاء لحاله بمثل ما كنت أبكى عليها .. فأننا أحيانا نشفق على مخلوقات تجردت من مثل هذا الشعور سواء بالنسبة للناس أو لأنفسها .. وعندما وقعت أنظارى على وجهه للمرة الأولى أدركت أنه علم بالكارثة .. وطرأت لى فكرة

ووجدته هناك ، على قيد خطوات من البستان ، مستندا الى شجرة عتيقة عارى الرأس ، مليد الشعر بالندى ..

سخيفة ، هي ان قلبه قد غشيته السكينة فراح يصلي ، إذ كانت شفتاه تتحركان فى تمتمة صامتة ، وقد أحنى رأسه كأنما ركعت انظاره على الأرض .. فقلت وقد كتمت شهقاتى وجفت عبراتى :

ـ أجل .. لقد ماتت .. وأرجو أن تكون قد ذهبت إلى السماء ، حيث يمكن أن نلحق بها ، كل واحد منا ، لو أصغينا إلى صوت النذير ، وتركنا سبل الشر لنسلك سبل الخير ..

فسألنى هينكليف فيما يشبه السخرية :

ـ وهل أصغت هى إذن إلى صوت النذير ؟ .. هل ماتت اشبه بقديسة ؟.. هيا .. تمنى على كل ما حدث ، فى صدق ودقة .. كيف لقيت ..

كان يهم بأن ينطق باسمها ، ولكنه لم يستطع التلفظ به ، وكان وهو يضغط على شفتيه كأنما يصارع ، فى صمت ، حزنه المكنون ، متحديا ـ فى الوقت نفسه ـ إشفاقى عليه ورثائى له بنظرات نارية ضارية ، وعينين لا تطرفان .. وأخيرا اضطر ، برغم صلابته ، إلى البحث عن متكأ خلفه ، إذ انتهى ذلك الصراع بهزيمته وأخذت الرعدة تسرى فى بدنه حتى أخمص قدميه ، على الرغم منه .. ثم تابع القول :

ـ كيف لقيت نهايتها ؟

فقلت فى نفسى : « أيها التعس المسكين ! .. إن لك قلبا وأعصابا مثل ما لاخوانك من بنى البشر .. فلماذا تظهف على إخفائها ؟ .. إن كبرياءك لن تخفى على الله ! .. وانت إنما

تدفعها إلى أن تظل تهصر قلبك وأعصابك ، حتى تنتزع منك عبرات الهوان والمذلة ! » .

ثم أجبته بصوت عال :

ـ فى هدوء الحمل الوديع .. تنهدت ثم بسطت جسمها ، اشبه بطفل يصحو من نومه ، ثم يعود إلى الاستغراق فيه ثانية .. وبعد خمس دقائق أحسست بقلبها يخفق خفقة واحدة ، ثم يسكن إلى الأبد !

فسألنى مترددا ، كأنما يخشى أن تتضمن إجابتى أشياء لا يطيق سماعها :

ـ هل .. هل لم تذكر اسمى قط ؟

ـ إنها لم تستعد حواسها ، ولم تعرف أحدا ، منذ أن فارقتها .. وهى ترقد الآن وعلى وجهها ابتسامة حلوة ، كأنما كانت خواطرها الأخيرة تسرح فى أيامها البهيجة الأولى .. لقد ختمت حياتها فى حلم رقيق ، وأدعو الله أن تقوم من الموت بمثل هذه الدعة فى العالم الآخر ..

فصاح فى انفعال مروع ، وهو يضرب الأرض بقدمه ، ويزمجر فى نوبة مفاجئة من العاطفة الجامحة :

ـ بل فلتقم فى عذاب الجحيم ! .. لماذا ؟ .. لقد كانت كاذبة حتى النهاية .. أين هى ؟ .. إنها ليست هناك فى المنزل .. وليست فى السماء .. ولم يشملها الفناء .. فأين هى ؟ أواه يا كاثرين ، لقد قلت إنك لا تبالين بآلامى جميعا . وأنا أدعو

الله دعاء واحدا ـ سأظل أردده حتى يجف لسانى ـ فلا عهدت الراحة والسلام ، يا كثرين ايرنشو ، ما دمت حيا .. وقد قلت إننى قتلتك .. فلتلازمنى روحك إذن لتنقض مضجعى ! .. ان روح المقتول لا تفتأ تحوم حول قاتله ، كما اعتقد .. والأشباح قد رؤيت تجوب الأرض ، فيما أعلم .. فكونى معى دائما ، على اية صورة تتراءين فيها .. وادفعى بى إلى الجنون ! .. ولكن لا تتركينى فى هذه الهاوية ، حيث لا أستطيع ان أجدك معى .. آه ! .. يا الهى ! .. هذا شىء يقصر عنه النطق ! .. إننى لا أستطيع العيش بغير حياتى .. ولا أستطيع الحياة بغير روحى ..

ثم أخذ يضرب رأسه بجذع الشجرة الخشن ، ثم يرفع عينيه ويطلق عواء لا يشبه أصوات البشر فى شىء ، إنما هو اشبه بعواء وحش كاسر يتمشى إليه الموت تحت طعنات المدى والحراب .. ولاحظت رشاشا من الدماء على لحاء الشجرة ، كذلك كان جبينه ويداه ملوثة بالدم .. والأرجح ان المنظر الذى شهدته لم يكن إلا تكرارا لما كان يجرى خلال الليل .. ولكنه لم يثر فى نفسى رحمة أو شفقة ، وإنما كان يخيفنى ويروعنى .. وبرغم ذلك فقد انفت ان اتركه على هذه الحال .. ولكنه فى اللحظة التى استرد فيها من الوعى ما يكفى لأن يدرك اننى اراقبه ، صاح بى فى صوت كقصف الرعد ، يأمرنى بالانصراف .. ولقد أطعته على الفور ، إذ كان مما تعجز عنه قدرتى ان أهدىء روعه أو أسرى عنه ..

وحدد موعد جنازة مسز لينتون فى يوم الجمعة التالى لوفاتها

.. وظل نعشها ، حتى ذلك الموعد ، مكشوفا وقد نثرت فوقه الزهور وأوراق الأشجار العطرية ، فى حجرة الاستقبال الكبرى .. وكان لينتون يقضى الأيام والليالى بجواره ، حارسا لا يغفل ولا ينام .. أما الشىء الذى خفى عن الجميع ، ما عداى ، فهو ان هيثكليف كان يقضى الليالى ، على الأقل ، فى الحديقة وقد حرم من الراحة كالحجار .. ولم أكن على أى اتصال به ، ومع ذلك كنت أدرك رغبته وعزمه على الدخول ، إذا تهيأت له الفرصة المواتية .. فما أن حل مساء الثلاثاء ، واسدل الظلام ستوره ، واضطر سيدى لفرط تعبه ان يأوى إلى فراشه نحو ساعتين ، حتى مضيت ففتحت إحدى النوافذ ، وقد تأثرت من مثابرته على البقاء فى الحديقة ، لأهيىء له فرصة يلقى فيها على وجه معبودته الشاحب نظرة وداع أخيرة .. ولم يغفل انتهاز هذه الفرصة ، فى حذر ولفترة قصيرة .. بل لقد كان من الحذر فى دخوله ، دون أى صوت أو جلبة ، بحيث ما كنت لأكتشف حضوره ، لولا أن وجدت الغطاء قد اختل نظامه حول وجه الجثة ، وان لاحظت على الأرض بجوار الفراش خصلة من الشعر الذهبى قد حزمت بخيط من الفضة ، ما كدت افحصها حتى أدركت أنه اخذها من نوط كان معلقا حول رقبة كاثرين .. كان هيثكليف قد فتح القلادة والقى بمحتوياتها على الأرض ، ووضع بدلها خصلة من شعره الأسود .. ولكنى حزمت الاثنتين معا ووضعتهما فى القلادة سويا !

وقد دعى مستر هندلى ايرنشو لتشييع جثمان شقيقته إلى مقرها الأخير ، ولكنه لم يحضر ولم يرسل اعتذارا ! .

وهكذا كانت الجنازة قاصرة ، فيما عدا زوجها ، على المستأجرين والخدم فحسب .. اما ايزابيلا فلم يدعها أحد ..

ولقد دهش القرويون إذ رأوا أن كاثرين لم تدفن فى صحن الكنيسة تحت النصب المنقوش الخاص بآل لينتون ، ولا فى مقابر أهلها خارجه .. وإنما دفن جثمانها فى قبر منفرد ، على سفح تل منحدر يغطيه العشب الأخضر ، فى ركن قصى من فناء الكنيسة ، بجوار السور الذى كان منخفضا فى ذلك الموضع بحيث زحفت على القبر الأعشاب المتسلقة ونبات التوت البرى الممتدة من منطقة الأحراش والبرارى، حتى كادت تغطيه تماما..

وفى البقعة نفسها يرقد زوجها الآن ، وعلى قبر كل منهما شاهد بسيط ، وقد اقيمت عند اقدامهما كتلة صماء من الحجر الأسمر لتميز موضع القبرين .

* * *

الفصل السابع عشر

كان يوم الجمعة المشئوم ـ يوم وسدنا كاثرين الثرى ـ آخر عهدنا بالطقس الجميل ، طيلة شهر كامل .. ففى مساء ذلك اليوم انقلب الجو بغتة ، وهبت الرياح من الجنوب نحو الشمال الشرقى ، فأخذت ترخى حبلها من المطر الغزير بادىء ذى بدء ، ثم قطع البرد الصلبة ، واخيرا رقائق الثلج الهشة الناصعة البياض .. حتى إذا أصبحنا فى الغداة ، كان من العسير ان يتصور إنسان اننا قضينا ثلاثة اسابيع فى جو شبيه بأيام الصيف .. فقد اختفت الأقاحى والزهور البرية تحت ركام الثلوج المتدفقة ، وسكتت القنابر عن شدوها الصداح ، وذبلت اوراق الشجر الوليدة واسود لونها .. وهكذا طلع علينا ذلك الصباح باردا ، موحشا ، كئيبا ..

كان سيدى معتكفا فى حجرته ، أما أنا فقد احتللت حجرة الجلوس الوحيدة ، وحولتها إلى دار للحضانة ! .. وكنت جالسة فيها ، وفوق ركبتى تلك الطفلة الشبيهة بدمية صغيرة لا تكف عن الأنين ، وقد أخذت أهدهدها وأهزها بمنة ويسرة ، وأرقب بين الفينة والفينة رقائق الثلج التى كانت لما تزل تنهمر فوق اغريز النافذة المجردة من الستائر ، وترتفع فوقه طبقة بعد طبقة ، عندما فتح الباب ، ودخل شخص مبهور الأنفاس ، يضحك بصوت عال ! .. وقد طغى سخطى وغضبى على دهشتى لحظة قصيرة ، إذ حسبت القادم واحدة من الخدم ، وصحت بها منتهرة :

www.vb3arabi.com/vb3

ـ حسبك وكفى ! .. كيف تجرؤين على إظهار طيشك ومجونك هنا ؟ .. ماذا يقول مستر لينتون إذا سمعك ؟..

فأجابنى صوت مألوف :

ـ أرجو المعذرة ! .. ولكنى اعلم ان ادجار فى فراشه الآن ، كما غلبنى الضحك ولم استطع إيقافه ..

وإذ نطقت المتحدثة بهذه العبارة ، تقدمت نحو المدفأة ، وهى تلهث بأنفاسها وقد وضعت يدها على جنبها .. وما لبثت ان استطردت بعد صمت قصير :

ـ لقد ظللت أجرى طول الطريق من « مرتفعات ويذرنج »، إلى حيث كانت السبول تدفعنى وتغمرنى .. فليس فى وسعى أن احصى عدد المرات التى وقعت فيها .. آواه ! .. ان كل ما فى بدنى يخزنى ويؤلمنى .. ولكن لاتزعجى ! .. سوف اشرح لك كل شىء بمجرد ان اجد فى نفسى القدرة على الكلام .. وكل ما ارجوه الآن هو ان تأمرى بإعداد العربة لتقلنى إلى جيمرتون ، وأن تطلبى من إحدى الخدم إحضار بعض الثياب لى من خزانة ملابسى ..

كانت القادمة ، كما احسبك قد أدركت، هى مسز هيثكليف (ايزابيلا) .. ومن المحقق انها لم تكن تبدو فى حالة تبرر الضحك .. كان شعرها متهدلا على كتفيها تتخلله ندف الثلج ، ويقطر منه الماء .. وكانت ترتدى ثوبا من ثياب الفتيات التى اعتادت لبسها ، يلائم سنها اكثر مما يليق

بمركزها .. ثوبا طويلا ذا اكمام قصيرة .. كما لم تكن تغطى راسها او تضع وشاحا حول عنقها .. وكان ثوبها حريريا رقيقا الصقه البلل بجسمها ، على حين كانت قدماها لا يحميهما سوى نعل خفيف مفتوح .. وإلى جانب ذلك ، كان يمتد تحت أذنها جرح غائر لم يحل دون نزف الدم منه بغزارة سوى البرد القارس ، كما كان وجهها الناصع البياض مليئا بالكدمات والخدوش ، وجسدها الناحل لا يكاد يقوى على التماسك من الإعياء والهزال معا .. ولك ان تتصور مبلغ فزعى الذى لم يخفف من حدته الوقت الذى انقضى منذ أن وقعت انظارى عليها حتى استطعت ان افحصها فى إمعان ، فصحت بها قائلة :

ـ أيتها السيدة العزيزة ، إننى لن اتحرك من مكانى ، ولن اسمع منك كلمة واحدة اخرى ، حتى تنزعى كل قطعة من ثيابك ، وتستبدلى بها ثيابا جافة دافئة .. ولا ريب انك لن تذهبى الليلة إلى جيمرتون وانت فى هذه الحالة ، فلا داعى إذن لإعداد المركبة ..

ـ بل سوف اذهب حتما ، سواء ركبت ام مشيت ! .. ولكن لا اعتراض لدى على تبديل ملابسى والظهور بالمظهر اللائق .. و .. آه ! .. انظرى كيف يجرى الدم فوق عنقى الآن ! .. إن حرارة النار تجعله لاذعا اليما !

وأصرت على ان انفذ اوامرها قبل ان تسمح لى بان المسها بيدى .. ولبثت حتى سمعتنى آمر الخوذى بإعداد

المركبة ، وإحدى الوصيفات بإحضار ربطة من الثياب واللوازم الأخرى ، وعندئذ فقط رضيت بأن أقوم بتضميد جرحها ، ومساعدتها فى استبدال ملابسها ..

وعندما فرغت من مهمتى ، اتخذت مجلسها على مقعد مريح بجانب الموقد ، وأمامها قدح من الشاى الساخن ، ثم بدأت تقول :

ـ تعالى الآن يا ايلين ، واجلسى امامى .. لكن ابعدى أولا بنت كاثرين المسكينة ، فلست احب ان اراها .. ولا ينبغى أن تحسبينى قليلة الاكتراث لموت كاثرين بسبب مسلكى الأحمق عند دخولى .. فقد بكيت ، أنا الأخرى ، بمرارة شديدة ، وكان لدى من اسباب البكاء اكثر مما لدى اى إنسان غيرى ، إذ افترقنا متخاصمتين ، كما تذكرين ، ولن اغفر لنفسى ذلك قط .. ولكنى برغم ذلك ما كنت بالتى تشاطره احزانه ، ذلك الوحش المفترس .. آه ! .. ناوليني محراك النار ! .. هذا آخر شىء اقتنيته ، مما يمت إليه بصلة ..

ثم نزعت خاتم الزواج الذهبى من اصبعها الثالث والقت به على الأرض ، وراحت تدق عليه بالمحراك الحديدى ، متابعة الحديث :

ـ سوف احطمه ، ثم ارمى به إلى النار ..

وشفعت القول بالفعل ، إذ تناولت الحلية المشوهة ووضعتها بين قطع الفحم المتوهجة ، واستطردت تقول :

ـ والآن .. عليه ان يشترى خاتما آخر ، إذا استطاع ان يدركنى ويعيدنى إليه ثانية ! .. وهو خليق بأن يحضر لياخذنى من هنا ، لا لشىء سوى إغاظة ادجار والنيل منه .. لذلك لا أجرؤ على البقاء ، حتى لا تتملك هذه الفكرة راسه الشرير ! .. ثم ان ادجار لم يكن بى شغوفا رحيما ، اليس كذلك ؟ .. ولست بالتى تتهافت على طلب معونته ، ولا بالتى تجلب عليه المزيد من المتاعب .. وقد الجأتنى الضرورة إلى ان انشد المأوى هنا ، ولكنى لو لم اعلم انه بعيد عن طريقى ، للبثت فى المطبخ ريثما اغسل وجهى ، واستدفىء قليلا ، وادعوك لتحضرى لى ما احتاج إليه ، ثم لرحلت ثانية إلى اية بقعة فى الأرض بعيدا عن متناول ذلك اللعين .. ذلك الشيطان المتجسد فى بدن إنسان ! .. آه ! .. لقد كان فى ثورة غضب جنونى ! .. ولو انه ادركنى وامسك بى ! .. من المؤسف ان هندلى ليس قريبا له فى القوة والبأس ! .. ولولا ذلك لما رحلت قبل أن اراه يمحى من الوجود ، لو أن هندلى كان قادرا على ذلك ..

فتطلعت قائلة :

ـ حسنا .. مهلا يا آنسة ، ولا تنطلقى فى الكلام بهذه السرعة .. فسوف تفسدين وضع المنديل الذى ربطته حول وجهك ، وتجعلين الجرح يدمى من جديد .. هيا اشربى الشاى ، والتقطى انفاسك المتلاحقة ، وخلى عنك هذا الضحك .. فالضحك الآن لا يليق بهذا المنزل المنكوب ، ولا بحالتك المؤسفة !

ـ هذه حقيقة غير منكورة يا ايلين ! .. ولكن اصغى إلى هذه الطفلة .. إنها لا تكف عن النواح منذ قدومى .. فابعديها عن مسامعى ساعة او بعض الساعة ، فلن امكث هنا طويلا ..

فقرعت الجرس، وعهدت بالوليدة إلى عناية إحدى الخادمات .. ثم مضيت أسالها عما دفعها إلى التعجيل بالفرار من « مرتفعات ويذرنج » ، فى مثل هذه الحالة الغريبة ، وإلى اين تزمع الذهاب ، ما دامت تابى البقاء معنا .. فاجابت :

ـ كان ينبغى ، بل لقد كنت اود ، ان ابقى لاسرى عن ادجار واقوم على رعاية الطفلة المنكودة .. لهذين السببين ولان « الجرانج » هو بيتى الطبيعى الحق .. ولكنى اؤكد لك انه لن يدعنى وشانى .. أتظنينه يطيق رؤيتى هنا ناسمة البال ، تكتسى عظامى الناحلة باللحم ، او يطيق مجرد التفكير فى اننا نعيش هنا فى هدوء وهناء ، ثم لا يصمم على ان ينفث سمه نيقضى به على راحتنا وسلامنا ؟ .. إننى الآن راضية مطمئنة إذ تحققت من كراهيته لى إلى الحد الذى يسوؤه فيه حقا ان يجدنى على مدى السمع او مرمى البصر .. كنت الاحظ عندما امثل فى حضرته كيف تتقلص عضلات وجهه، فى حركات لا إرادية ، معبرة عما يضمره لى من حقد ، وما يكنه لى من بغضاء ، ينبعث بعضها من علمه بالاسباب القوية التى تدفعنى إلى الإحساس بمثل هذه البغضاء نحوه ، وينشأ باقيها من نفوره الاصيل منى .. وهذه البغضاء قد اضحت من القوة بحيث تجعلنى اشعر عن يقين بانه لن يسعى ورائى او يطاردنى فى ارجاء إنجلترا كلها ، إذا ما دبرت فرارا نهائيا ، ولذلك

يجب ان اذهب إلى مكان بعيد .. ولقد شفيت تماما من تعلقى السابق به ، ورغبتى المأفونة فى ان القى مصرعى على يديه !.. بل شد ما اود الآن ان يقتل نفسه بيده ! .. لقد قضى على حبى له ، واطفأ شعلته المتقدة ، بحيث هدا بالى واسترحت!.. ومع ذلك فما زلت اذكر كيف احببته ، وما زلت اتصور كيف كان يمكن ان اقيم على حبه لو .. لا .. لا .. نحتى لو كان يهيم بى حبا ، فإن طبيعته الشيطانية كانت خليقة بان تكشف عن وجودها على صورة ما .. ولا بد ان كاثرين كانت ذات ذوق منحرف إلى حد شنيع حتى تنطوى له على كل هذا القدر من التقدير والإعزاز، برغم علمها حق العلم بطبيعته.. يا للوحش ! .. ارجو ان يمحو الله ذكراه من الوجود ، ومن ذاكرتى !

فقلت :

ـ صه ! .. صه ! .. إنه إنسان على اية حال .. الا كونى اكثر انصافا وإحسانا ، فهناك رجال اسوأ منه بكثير برغم كل شىء ..

فردت على قائلة :

ـ ولكنه ليس إنسانا على الاطلاق ، ولا حق له فى شفقتى وإحسانى .. لقد وهبته قلبى ، فاخذه وظل يعصره ويخنته حتى قضى عليه ، ثم القاه إلى ثانية جثة هامدة ! .. ان الناس يحسون بقلوبهم يا ايلين ، وما دام قد دمر قلبى ، فكيف يمكن ان اشعر نحوه بشىء ؟ .. وما كنت لاشفق عليه او

ارثى لحاله ، ولو ظل يئن ويتأوه من اليوم حتى يوم مماته ، ويذرف الدموع دما على كاثرين .. كلا .. كلا .. لن افعل حقا ..

وعندئذ اخذت ايزابيل فى التحيب ، ولكنها ما ان ذرفت بعض الدموع حتى كفكفت عبراتها واستطردت تقول :

ـ إنك سألتنى عما دفعنى إلى الفرار أخيرا ؟ .. لقد اضطررت إلى هذه المحاولة ، لأننى افلحت فى إثارة غضبه بما يفوق خبثه ولؤمه .. فإن انتزاع الاعصاب من جذورها ، بملاقط محماة فى النار ، يحتاج إلى مزيد من البرود والهدوء اكثر من الضرب واللطم فوق الراس .. وقد ثارت ثائرته حتى نسى حذره الذى كان يفاخر به ، ولجأ إلى العنف القتال .. وملأنى السرور إذ استطعت ان اخرجه عن طوره ، فايقظ هذا السرور فى نفسى غريزة المحافظة على الحياة ، وهكذا انطلقت هاربة على الفور .. فلو عدت إليه يوما من الايام ، والقيت بنفسى بين يديه ثانية ، فإننى استحق ان ينتقم منى شر انتقام ..

وانت تعلمين أن مستر ايرنشو كان يجب أن يحضر الجنازة امس .. وقد ظل محتفظا بوعيه وصحوته ، ولم يقرب الخمر ، لهذا الغرض .. فلم يذهب إلى الفراش ، كعادته ، فى السادسة صباحا فاقد الوعى ، ليقوم عند الظهر فيستانف الشراب .. وهكذا استيقظ مكتئبا يكاد الانقباض يقتله ، لا يصلح للذهاب إلى الكنيسة إلا كما يصلح للذهاب إلى مرقص .. وبدلا من

هذا او ذاك ، جلس بجوار المدفأة وراح يجرع كؤوسا مترعة من الجن او البراندى ..

اما هيثكليف ـ وإن بدنى ليقشعر عندما انطق باسمه ـ فقد ظل غريبا عن المنزل منذ يوم الاحد الماضى حتى اليوم .. ولست ادرى إن كانت الملائكة هى التى كانت تطعمه ، ام اخوه من الجان فى العالم السفلى ! .. ولكنه لم يتناول ذرة من الطعام معنا زهاء اسبوع .. كان يعود إلى المنزل فى الفجر ، فيصعد إلى حجرته ويوصد بابها عليه ، كأنما كان هناك من يفكر فى اشتهاء رفقته ! .. وهناك يظل يصلى ويبتهل كأنه من غلاة المتدينين .. ولكن المعبود الذى كان يبتهل إليه كان من التراب والرماد ! .. وكان « الله » ، إذا دعاه مخلطا على نحو غريب بابيه الشيطان الاسود ! .. وبعد ان يتم هذه الصلوات الثمينة ، التى كانت تطول عادة حتى يبح صوته ويخنق فى حلقه ، فإنه يبرح الدار لا يلوى على شىء ، فيمضى قدما إلى الجرانج .. وشد ما اعجب كيف ان ادجار لم يرسل فى طلب شرطى يقوده إلى السجن ! .. اما انا ، فعلى ما كنت فيه من حزن واسى على كاثرين ، فقد كان من المستحيل ان اتحاشى اعتبار هذه الفترة التى نجوت فيها من طغيانه المهين ، كإجازة سعيدة !

واستعدت مرحى بما يكفى لسماع خطب جوزيف الطويلة الأبدية دون بكاء ، وللمضى فى الدار ذهابا وجيئة فى خطى غير خطى اللص المذعور التى كنت امشى بها من قبل .. ولا احسبك تظنيننى خليقة بان ابكى من اى شىء يقوله جوزيف ،

ولكنه وهيرتون شر رفقة يمكن ان يبتلى بها إنسان .. ولخير لى ان اجلس مع هندلى ، واستمع إلى حديثه البشع المروع ، من ان اجلس مع « السيد الصغير » ، وحاميه الامين ، ذلك الشيخ المأفون المرذول .. وعندما يكون هيثكليف فى المنزل ، فاننى اضطر غالبا إلى الالتجاء إلى المطبخ فى رفقتهما ، او ارافق الجوع فى إحدى الحجرات الرطبة غير المأهولة .. اما إذا كان خارج الدار ، كما كان شأنه طوال هذا الأسبوع ، فانى اقيم لنفسى منضدة ومقعدا عند ركن المدفأة بحجرة الجلوس ، ولا ابالى بما يفعله مستر ايرنشو ليشغل به نفسه ، كما انه من جانبه لم يكن ليزج بنفسه فيما اتخذه انا من ترتيبات . وهو الآن اكثر هدوءا مما اعتاد ان يكون ، ما لم يستفزه احد او يستثيره ، واشد عبوسا واكتئابا ، واقل غضبا وهياجا .. ويؤكد جوزيف يقينه فى انه اصبح رجلا آخر ، وان الله قد مس قلبه ، وهكذا نال الخلاص كأنما « طهرته النار » .. وقد حيرنى أن استشف علامة واحدة من علامات هذا التبدل المزعوم ، ولكن ذلك ليس من شأنى فى شىء !

وكنت ليلة الأمس اجلس فى ركنى المعهود ، أطالع فى بعض الكتب القديمة ، حتى ساعة متأخرة إذ اوشك الليل ان ينتصف .. وكان الصعود إلى الطابق العلوى يبدو بشعا مروعا ، مع تلك العاصفة الثلجية الضارية التى تهب فى الخارج ، ومع انطلاق افكارى باستمرار نحو فناء الكنيسة وذلك القبر الحديث البناء ! .. ولم اكن اجرؤ على رفع انظارى عن الصفحات المفتوحة امامى ، لان ذلك المنظر الحزين كان

يسارع إلى احتلال مكانها امام عينى .. وكان هندلى يجلس فى الناحية الاخرى ، وقد احنى رأسه واسنده إلى راحته ، ولعله كان يفكر فى ذلك الأمر نفسه ! .. وكان قد كف عن الشراب عند مرحلة لم تصل به إلى فقدان الصواب ، وجلس ساكنا لا يتحرك او ينطق بكلمة نحو ساعتين او ثلاث .. ولم يكن يسمع فى المنزل كله صوت ، غير ولولة الرياح التى كانت ترج النوافذ بين آن وآخر ، وغير طقطقة الفحم فى المدفأة ، او طقات المقراض كلما ازلت به نبالة الشموع المحترقة .. اما جوزيف وهيرتون فالارجح انهما كانا ينعمان بسبات عميق فى فراشهما .. كان مجلسنا حزينا غاية الحزن ، وكنت خلال قراءتى ، ازفر زفرات حارة ، إذ كان يبدو لى ان كل ما فى العالم من بهجة وسرور قد نضب معينه وتلاشى من الوجود ، ولن يعود إليه قط ثانية ..

واخيرا مزق هذا الصمت الحزين صوت سقاطة باب المطبخ وهى تتحرك فى مكانها ، إذ بكر هيثكليف فى عودته من جولته الليلية عن المعتاد ، واحسب ان العاصفة التى هبت فجاة كانت السبب فى ذلك .. ولكن باب المطبخ كان موصدا من الداخل بالمزاليج ، فسمعناه يدور حول الدار ليدخل من الباب الآخر .. عندئذ انبعثت واقفة ، وعلى شفتى صيحة لم استطع كتمانها ، كانت تعبر عما يختلج فى نفسى ، وحدت برفيقى الذى كان يحملق بانظاره فى الباب إلى ان يستدير وينظر إلى ، قائلا :

ـ سوف ادعه واقفا فى الخارج خمس دقائق اخرى ، فهل لديك مانع ؟

ـ كلا .. لك أن تدعه خارجا الليل بطوله من اجلى .. اسرع .. ضع المفتاح فى القفل وادفع المزاليج وراء الباب ..

وفعل ايرنشو ذلك قبل أن يصل القادم إلى واجهة الدار ، ثم عاد وجذب مقعده نحو الجانب المقابل من المائدة امامى ، حيث استند إليه ، ومال نحوى ، واخذ يتفرس فى عينى متفحصا ، ليرى إن كنت اشاطره ذلك الحقد النارى الذى كان يتوهج فى عينيه .. ولكنه كان يبدو ويحس كأنه قاتل يتأهب للفتك بفريسته ، فلم يستطع أن يدرك مشاعرى تماما ، وإن كان قد تبين منها ما يكفى لتشجيعه على الكلام .. فقال :

ـ ان لكلينا دينا عظيما لابد من انتضائه من ذلك الرجل الذى يقف خارجا .. فإذا لم يكن احدنا جبانا رعديدا ، فإن فى وسعنا ان نوحد جهدنا لاستخلاص هذا الدين .. فهل تراك رخوة خائرة العزيمة كأخيك ؟ .. وهل تودين احتمال ما تعانينه حتى النهاية ولا تحاولين مرة واحدة ان تثأرى لنفسك ؟ ..

فاجبته :

ـ لقد اضنانى الاحتمال الآن ، ولسوف يسرنى ان اثأر لنفسى على نحو لا يرتد على وبالا .. ولكن الغدر والعنف حراب ذات نصال مرهفة فى كلا طرفيها ، وهى تجرح اولئك الذين يلجأون إليها بأشد مما تفعل بأعدائهم ..

فصرخ هندلى فى وجهى قائلا :

ـ ان الغدر والعنف هما الجزاء الحق للغدر والعنف ! .. وإننى يا مسز هيثكليف لا اسألك ان تفعلى شيئا ، بل اجلسى ساكنة فى مكانك وانسى ان لك لسانا يستطيع النطق ! .. والآن ، هل فى وسعك ان تفعلى ذلك ؟.. إننى على يقين من انك لن تقلى عنى سرورا واستمتاعا بمشاهدة نهاية الشيطان الأخيرة !.. إنه سوف يكون هلاكك ، إذا لم تسبقى إلى إهلاكه ، وسوف يكون دمارى .. الا لعنة الله على الوغد الجهنمى !.. إنه يقرع الباب كأنما اصبح سيد هذه الدار !.. عدينى بأن تمسكى لسانك ، وسترين انك قبل ان تدق الساعة ، وقد بقيت ثلاث دقائق على الساعة الواحدة ، قد غدوت امرأة حرة !

واخرج من صدريته ذلك السلاح الذى وصفته لك فى خطابى ، واراد ان يطلق الشمعة لولا اننى بادرت إلى اختطافها منه ، وامسكت بذراعه قائلة :

ـ لن امسك لسانى .. كما انك لا يجب ان تمسه .. دع الباب موصدا ، واركن إلى الهدوء قليلا ..

فصاح الإنسان اليائس قائلا :

ـ كلا .. لقد انتهيت إلى قرار حاسم ، واقسم بالله ان انفذه .. سوف اسدى إليك جميلا برغم انفك ، وارد إلى هيرتون حقوقه .. ولا اراك فى حاجة لأن تشغلى راسك بحمايتى ! .. لقد ذهبت كاثرين ، ولم يعد فى الوجود من

يحزن على ، أو يلحقه العار بسببى لو اننى قطعت عنقى هذه اللحظة .. وقد حان الوقت لوضع نهاية لهذا الأمر ..

ولو اننى ناضلته وقتئذ فكأننى كنت أصارع دبا هائجا ، ولو ناقشته فكأننى كنت أجادل مجنونا فاقد الصواب .. فلم تعد أمامى من حيلة الجأ إليها سوى أن أعدو إلى إحدى النوافذ لأحذر ضحيته مما ينتظره من قضاء .. فصحت فى نبرات يخالجها الانتصار :

ـ خير لك أن تبحث عن مأوى لك فى مكان آخر الليلة ، فإن مستر ايرنشو يفكر فى أن يطلق عليك النار إذا أصررت على محاولة الدخول ..

ـ بل خير لك أن تفتحى الباب أيتها الـ ..

قال ذلك وهو يخاطبنى بلفظ رشيق لا أرى ما يدعو لترديده ! .. ولكنى عدت أقول له :

ـ لن أزج بنفسى فى هذا الأمر ، فما عليك إلا أن تدخل وتصاب بالرصاص إذا كان ذلك يسرك ! .. أما أنا فقد أديت واجبى ..

وما انتهيت من كلامى حتى أغلقت النافذة ثانية ، وعدت إلى مكانى بجوار الموقد .. وإذ كانت ذخيرتى من النفاق قد نفدت ، فلم يعد فى وسعى أن أتظاهر بالقلق نحو الخطر الذى يتهدده ! .. أما ايرنشو فقد راح يسبنى فى حرارة ويؤكد اننى ما زلت احب الوغد بعد ، ويطلق على صنوفا من النعوت والصفات لما أظهرته من نفسية وضيعة ! .. أما انا فكنت فى

قرارة قلبى (ولم يؤنبنى ضميرى على ذلك قط) أرى كم تكون نعمة لهندلى ورحمة لو استطاع هيثكليف أن يضع نهاية لبؤسه ، وكم تكون نعمة لى وبركة لو استطاع هو أن يرسل هيثكليف إلى مثواه العادل ! .. وفيما كنت جالسة أعد هذه الخواطر ، إذا بمصراع إحدى النوافذ الضيقة خلف مقعدى يهوى إلى الأرض فجأة بعد أن أهوى عليه هيثكليف بضربات عنيفة ، ثم بدا من خلال النافذة وجهه الأسود الهضيم .. ولم تكن القضبان الحديدية من السعة بحيث تسمح بمرور كتفيه ، فابتسمت ابتهاجا لما أحسست به من أمن مزعوم .. وكان الثلج الأبيض يغطى شعره وثيابه ، بينما كانت أنيابه الحادة المفترسة تتألق فى الظلام ، وقد جعله البرد والغضب يكشر عنها ..

وما لبث أن راح « يزوم » كما يقول جوزيف ، قائلا :

ـ دعينى أدخل يا ابزابيلا ، وإلا جعلتك تندمين طويلا ..

فأجبته :

ـ ليس فى وسعى أن ارتكب جريمة قتل .. فإن مستر هندلى يقف مترقبا وفى يده سكين ومسدس محشو بالرصاص ..

ـ افتحى لى باب المطبخ ..

ـ سوف يسبقك هندلى إليه .. ثم ما أتفه هذا الحب الذى تطوى عليه جوانحك فلا يجعلك تطيق رذاذا من الثلوج ! .. لقد كنا نرقد فى فرشنا هانئين ناعمين طالما كان قمر

الصيف مشرقا زاهيا ، ولكنك فى اللحظة التى تعود فيها عصفة من عواصف الشتاء تسارع بالفرار والبحث عن ملجأ وماوى ! .. لو اننى كنت فى مكانك يا هيثكليف ، لذهبت ورقدت فوق قبرها حتى اموت اشبه بكلب امين ذى وفاء !.. فان الدنيا لا تستحق العيش فيها الآن حقا ، اليس كذلك ؟.. وقد اوحيت إلى ، بما لا يقبل الشك ، بأن كاثرين كانت وحدها كل ما فى حياتك من بهجة وسعادة ، ولست استطيع ان اتصور كيف تفكر فى أن تعيش بعد فقدها !

وعندئذ هتف رفيقى وهو يندفع نحو فجوة النافذة :

ـ إنه هناك .. اليس كذلك ؟. إذا استطعت ان اخرج ذراعى فسوف اصيبه حتما !

واخشى يا ايلين ان تعدينى شريرة متأصلة الشر ، ولكنك لا تعرفين كل شىء ، فلا تحكمى على .. فانى ما كنت لاشترك او احرض على اية محاولة للاعتداء على حياته ، مهما يكن من امر .. ولكن ما من شك فى اننى كنت اتمنى موته !.. ولذلك فقد خاب املى إلى حد مخيف ، وانخلع قلبى من الرعب مما سوف يكون لحديثى العنيف من عواقب مروعة ، عندما التى بنفسه على سلاح ايرنشو وانتزعه من قبضته ..

وانطلقت الرصاصة مدوية .. أما السكين فإنها عندما ارتدت إلى مخبئها ، اطبقت على رسغ صاحبها .. وانتزعها هيثكليف فى قوة خارقة ، حتى مزقت اللحم وهى تجرى فوقه ، ثم القى بها فى جيبه وهى تقطر بالدماء .. وعندئذ

تناول حجرا ضخما وراح يحطم به الحاجز بين النافذتين ، ثم وثب إلى داخل الحجرة .. وكان غريمه قد وقع على الأرض فاقد الوعى ، من فرط الالم ، ومن فيض الدماء التى تدفقت من شريان كبير مقطوع .. فأخذ الوغد يركله ويعلؤه بقدميه ويدق البلاط برأسه المرة طو المرة ، وهو يمسك بى بيده الأخرى ليحول دون استنجادى بجوزيف .. وكان يبذل جهدا فوق طاقة البشر فى نكران الذات ودفع عوامل الإغراء ، حتى لا يجهز عليه نهائيا .. ولكنه إذ بدا يلهث من التعب اخيرا ، كفّ عن متابعة عمله الشيطانى ، وراح يجر الجسم المسجى حتى الأريكة ، ثم مزق كم سترة ايرنشو واخذ يربط الجرح فى خشونة وحشية وهو يبصق ويلعن فى حمية لا تقل عن التى كان يركله بها .. وإذ القيت نفسى قد تحررت من قبضته ، لم اضيع شيئا من الوقت فى البحث عن الخادم الشيخ ، الذى ما كاد يستوعب فى بطء وتبلد فحوى قصتى العاجلة ، حتى اسرع يهبط الدرج كل اثنين معا ، وهو يغمغم لاهثا :

ـ ماذا يجب عمله الآن ؟.. ماذا يجب عمله الآن ؟..

فصاح به هيثكليف فى صوت كهزيم الرعد :

ـ هاك ما يجب عمله .. ان سيدك مجنون ، ولو ظل على هذه الحال شهرا آخر ، فسوف ابعث به إلى مستشفى الأمراض العقلية .. ثم كيف اجترات ، بحق الشيطان على إيصاد الأبواب دونى ، أيها الكلب الأهتم ؟ .. لا تقف هكذا تغمغم وتهمهم فى مكانك .. تعال ، فانى لن اقوم على تمريضه

وكان غريمه قد وقع على الأرض فاقد الوعى ، من فرط الالم ، ومن غزير الدماء التى تدفقت من شريان كبير مقطوع ..

.. افسل هذه الاقذار ونظف الجرح .. ولكن حذار من شرر شمعتك ، فان اكثر من نصف هذه الدماء من الكحول !

فهتف جوزيف وهو يرفع ذراعيه ، وعينيه ، إلى السماء فزعا ورعبا :

ـ وإذن فقد كنت تعمل على الفتك به ؟.. إن عينى لم تقعا على مثل هذا المنظر قط من قبل !.. فليكن الله ..

وعندئذ دفعه هيثليف دفعة قوية القت به على ركبتيه وسط الدماء ، ثم طرح إليه بمنشفة .. وبدلا من أن ياخذ جوزيف فى مسح الدماء ، ضم يديه معا ، وانطلق فى صلاة انتزعت الفاظها العجيبة الضحك منى برغم إرادتى .. فقد كنت فى حالة عقلية تجعلنى اتاثر من أتفه شىء .. بل الواقع اننى كنت فاقدة الشعور متبلدة الحس كما يبدو بعض المجرمين وهم عند اعتاب المشنقة !

فقال الطاغية وقد نبهته ضحكتى :

ـ آه !.. لقد نسيتك .. انت التى يجب ان تقوم بهذا العمل .. اركعى على الأرض .. هل كنت تتآمرين معه ضدى ايتها الأفعى ؟.. هيا .. هذا هو العمل الذى يليق بك ..

وراح يهزنى حتى اصطكت اسنانى فى قوة ، ثم طوح بى إلى جوار جوزيف .. وكان هذا الأخير ماضيا فى دعواته وابتهالاته حتى انتهما فى ثبات ، وعندئذ نهض ناذرا ان يذهب على الفور إلى « الجرانج » ، فقد كان مستر لينتون قاضيا ، ولو ماتت له خمسون زوجة فلن يتاخر عن التحقيق فى هذا الأمر ..

وكان من العناد والاصرار على تنفيذ عزمه بحيث رأى هيثكليف من الأوفق أن ينتزع من شفتى ملخصا لما حدث .. كان يقف فوق رأسى ، لاحثا بالشر والضغينة ، بينما كنت انطق بشهادتى فى تفور ، ردا على اسئلته المتتابعة .. وقد احتاج الأمر إلى جهد عظيم لإقناع العجوز بأن هيثكليف لم يكن المعتدى ، خصوصا وأن اجاباتى كانت تنتزع منى فى عناء .. ومهما يكن من أمر ، فسرعان ما اقنعه مستر ايرنشو نفسه بانه ما زال على قيد الحياة ، فقد اسرع جوزيف باحضار جرعة من الشراب كان لها أثرها فى إسعاف سيده ، فما لبث أن استرد الوعى والحراك .. وإذ كان هيثكليف يدرك أن خصمه يجهل كل شىء عن المعاملة التى لقيها منه بينما كان فاقد الرشد ، فقد دعاه بالسكير المخرف ، وقال إنه سوف يغضى عن مسلكه الآثيم ، ثم نصحه بأن يذهب إلى فراشه !.. وكم كان سرورى إذ فارقنا بعد أن القى بهذه النصيحة القيمة .. فاسندلقى هندلى على الارض بجوار الموقد ، أما أنا فانصرفت إلى حجرتى ، متعجبة من أننى افلت منه بهذه السهولة ..

وعندما نزلت صباح اليوم ، قبل الظهر بنصف ساعة ، كان مستر هندلى جالسا بجانب النار ، شاحب الوجه كالاموات ، بينما وقف شيطانه الزنيم مستندا إلى المدفأة ، وهو لا يقل عنه شحوبا واصفرارا .. ولم يكن يبدو على أحدهما ميل إلى تناول الطعام ، حتى إذا ما طال انتظارى ، وبرد الطعام وفتر فوق المائدة ، بدأت الأكل وحدى .. وكنت استشعر نوعا من الرضى والسمو ، كلما القيت بين الحين والآخر نظرة على رفيقى

الصامتين ، واحس فى اعماقى براحة ضميرى الذى لا يثقله وزر أو سوء .. فلما فرغت من طعامى ، تذرعت بالجراة لممارسة حريتى المعتادة فى الاقتراب من الموقد ، فدرت حول مقعد أيرنشو ، وجثوت فى الركن إلى جانبه ..

ولم يلق هيثكليف نظرة واحدة نحوى ، أما أنا فقد رحت احدق النظر إليه واتفرس فى اساريره ، بقلب قوى غير هياب ، وكأنما قد تحولت إلى حجر منحوت .. كان جبينه ، الذى حسبته ذات مرة معبرا عن الرجولة الحقة ، والذى احسبه الآن كجبين الشيطان ، تظلله سحابة كثيفة من الهم والاسى .. وكانت عيناه الثعبانيتان ، قد اطفأ بريقهما السهد ، وربما البكاء إذ كانت اهدابهما وتتئذ رطبة ندية .. أما شفتاه اللتان تجردنا من سخريتهما الضارية ، فقد اطبقتا فى قوة وكأنما ختم عليهما حزن دفين مكتوم .. ولو انه كان شخصا آخر ، لاخفيت وجهى بين يدى أمام مثل هذا الحزن العظيم .. أما فى حالته هو ، فقد وجدت فيها ما يرضينى ويثلج قلبى .. ومهما يكن يبدو من الخسة والنذالة أن يسب المرء عدوا مهزوما ، إلا أننى ما كنت لأدع هذه الفرصة تمر دون أن أرميه بسهم من يدى .. فساعة ضعفه هى اللحظة الوحيدة التى أذوق فيها لذة مقابلة الاساءة بالاساءة ..

فقاطعتها قائلة :

ـ بئس ما فعلت يا آنسة ! .. ان المرء ليظن أنك ما فتحت كتابا مقدسا فى حياتك .. وإذا كان الله قد ابتلى اعداءك ،

فان ذلك خليق بان يكفيك .. فمن النذالة والكفران معـا ان تضيفى عذابك إلى عذابه جل شأنه !

فاستطردت تقول :

ـ اننى أوافقك على ما تقولين يا ايلين بصفة عامة .. ولكن اى عذاب ذلك الذى يصيب هيثكليف ويرضيني ، إذا لم تكن لى يد فيه ؟.. اننى كنت أرجو ان تقل آلامه ، لو اننى كنت التى سببتها ، وكان هـو يعرف اننى سببها .. آه !.. اننى مدينة له بالكثير !.. واننى لخليقة بان آمل ان اصـفح عنه ، بشرط واحد فقط .. ذلك ان اجزيه عينا بعين وسـنا بسن ، وكل عصرة من الالم عصرة مثلها ، حتى اهبط به إلى مستواى ! .. وإذ كان هو البادىء بالعدوان والإساءة ، فدعيـه يكن البادىء باستجداء الصفح ، وعندئذ .. عندئذ فقط يا ايلين يمكن ان أظهر لك شيئا من الكرم .. ولكن من المحـال قطعا ان أستطيع الانتقام لنفسى ، ولذلك فانني لن استطيع الصفح عنه ..

ثم أردفت تتابع الحديث :

طلب هندلى بعض الماء ، فناولته الكوب ، ثم سألته عن حالته ، فقال :

ـ لست مريضا بالقدر الذى كنت أوده .. وبغض النظـر عن آلام ذراعى ، فإن كل قيراط من بدنى يخزنى ويؤلمنى كأنما كنت أحارب فرقة من العفاريت ..

فكانت ملاحظتى التالية ان قلت :

ـ نعم .. ولا عجب !.. لقد اعتادت كاثرين أن تزهو بانها تقف بينك وبين اى اذى جسمانى .. وكانت تعنى ان احـد الناس لن يجرؤ على إيذائك ، حتى لا يسىء إليهـا .. والآن تأكدت ان الناس لا يقومون حقيقـة من قبورهم ، وإلا كان من الممكن ان تشهد كاثرين ليلة الأمس منظرا كريهـا منفـرا .. الست تحس بالكدمات والقطوع فى صدرك وكتفيك ؟..

ـ لست أدرى تماما .. ولكن ماذا تعنين ؟ .. هـل اجترأ على ضربى بينما كنت طريحا على الأرض ؟..

فهمست قائلة :

ـ كان يركلك ويدوسك بقدميه ويضرب راسك بالبلاط ، وكان اللعاب يسيل من فمه شوقا إلى تمزيقك بأنيابه .. لانه ليس إلا نصف إنسان ، وأما باقيه فشيطان رجيم ..

فتطلع مستر ايرنشو بانظاره إلى اعلى محملقا ، مثلى ، فى وجه عدونا المشترك الذى كان مستغرقا فى همـومه وآلامه بحيث كان يبدو غافلا عن كل ما يدور حوله .. وكان كلما طال وتمعنه ، كلما ازداد انطباع افكاره السـوداء على اسـاريره وضوحا ..

فتأوه هندلى ، وتلوى فى مقعده وهو يهم بالنهوض ، وكأنه لا يستطيع صبرا ، وقال :

ـ آه !.. لو ان الله يهبنى من القوة القـدر الذى يكفى لان

اخنقه بيدى وانا فى النزع الاخير ، لدخلت الجحيم راضيا مسرورا !

ولكنه غاص فى مقعده ثانية ، وقد تملكه اليأس ، بعد ما تبين قصوره عن النضال .. بينما كنت اقول بصوت مرتفع :

ـ لا .. لا .. فيكفى انه قتل واحدا منكم .. ان كل إنسان فى « الجرانج » يعرف أن شقيقتك كانت خليقة بالبقاء على قيد الحياة الآن ، لولا مستر هيثكليف .. وهكذا فان الأفضل للمرء أن يكون محل بغضه وكراهيته من أن يكون موضع حبه وهيامه .. وانني كلما ذكرت كيف كانت السعادة تحلق فوقنا جميعا ، وكيف كانت كاثرين سعيدة هانئة قبل مقدمه ، ارانى العن ذلك اليوم من كل قلبى ..

واغلب الظن أن هيثكليف ادرك ما فى هذا القول من الصدق، اكثر من إدراكه ما كان يعتمل فى قلب الشخص الذى نطق به .. فقد ثار انتباهه لكلماتى ، كما رأيت ، إذ اخذت عيناه تمطران الدموع بين اهدابهما ، وراح يلتقط انفاسه فى آنات مختنقة .. فرحت أحملق النظر إليه مواجهة ، ثم ضحكت ساخرة .. فانطلقت نحوى من نافذتى جهنم الغائمتين نظرات نارية لم تدم اكثر من لحظة .. ولكن الشيطان الذى كان يطل منهما عادة كان كالبدا ، غريقا ، بحيث لم يخالجنى الخوف لحظة من المجازفة بضحكة ساخرة اخرى ..

فقال الثاكل المحزون :

ـ قومى ، واغربى عن ناظرى ..

وقد فهمت كلماته من قبيل الحدس والتخمين ، إذ كان صوته مختنقا لا يكاد يبين منه لفظ او حرف .. فأجبته :

ـ ارجو المعذرة !.. ولكنى كنت احب كاثرين ايضا .. وها هو ذا شقيقها يحتاج إلى العناية التى سوف اقدمها له ، إكراما لذكراها .. اما وقد ماتت الآن ، فانى اراها فى هندلى .. ان عينيه تشبهان عينيها تماما ، لولا محاولاتك فى جعلهما بارزتين مجللتين بالسواد والحمرة !.. كما انها ..

فصاح قائلا :

ـ انهضى ايتها التعسة الحمقاء ، قبل ان أسحقك حتى اقضى عليك ..

ثم هم بحركة جعلتنى اتحرك فى مكانى بدورى ، ولكنى اردفت ، قائلة ، وقد اعددت نفسى للفرار :

ـ ولكن لو ان كاثرين المسكينة كانت قد وثقت بك ورضيت ان تتخذ لنفسها ذلك اللقب المضحك الحقير المزرى ، لقب « مسز هيثكليف » ، لغدت وشيكا فى مثل هذه الصورة الأليمة .. انها ـ هى ـ ما كانت لتحتمل مسلكك الفظيع فى سكون وهدوء ، ولوجد بغضها واشمئزازها متنفسا ..

وكان ظهر المقعد المرتفع ، وشخص ايرنشو ، يحولان بينه وبينى .. وهكذا فانه بدلا من ان يحاول الانقضاض على ، اختطف سكينا من فوق المائدة ، وقذف بها رأسى ، فأصابتنى تحت اذنى ، واوقفت العبارة التى كنت على وشك ان انطق بها .. ولكنى انتزعتها ، ووثبت نحو الباب ، ثم القيت إليه

بعبارة اخرى احسبها كانت اشد عمقا فى نفسه من قذيفته التى رماني بها !.. وكانت آخر لمحة رأيتها منه ، أنه اندفع نحوى فى وحشية ، ولكن حال بينه وبين ملاحقتى أن مضيفه قام فاحتضنه ثم سقط الاثنان متماسكين بجوار المدفأة .. وفى اثناء فرارى من المطبخ ، طلبت إلى جوزيف أن يدرك سيده ، وتعثرت فى هيرتون الذى كان يدلى جروا رضيعا من فوق ظهر المقعد فى مدخل المطبخ .. وفى سعادة الروح التى انطلقت من يوم الحساب ، انطلقت اقفز واثب واطير طيرانا فى الطريق المنحدرة ، ثم ما لبثت ان تركت منحنياتها ومضيت اخترق البرارى راسا ، فاندحرج فوق الشطآن ، واخوض خلال المستنقعات ، واستحث خطاى نحو « الجرانج » الذى اتخذت منه منارا يهدينى سواء السبيل .. واننى لأفضل الف مرة أن يحكم على بالسكنى الابدية فى تلك المناطق الجهنمية ، من أن اقضى ولو ليلة واحدة تحت سقف « مرتفعات ويذرنج » ثانية ..

وكفت ايزابيلا عن الكلام ، واخذت رشفة من الشاى ، ثم نهضت وطلبت إلى ان أعاونها فى ارتداء قبعتها والتدثر بشال كبير احضرته لها ، وقد اعارت توسلاتى لها بالبقاء ساعة اخرى أذنا صماء ، ثم ارتقت مقعدا فقبلت صورة كاثرين وصورة ادجار ، ومنحتنى قبلة اخرى ، واسرعت إلى العربة وفى صحبتها كلبها « فانى » الذى كان ينبح فى مرح شديد لاستعادة سيدته .. وانطلقت بها العربة ، فلم نضع قدمها فى تلك الانحاء بعد ذلك قط .. ولكن نشأ بينها وبين سيدى

تراسل منتظم بعد ان ازدادت الأمور استقرارا .. واعتقد انها اتخذت مقرها الجديد فى الجنوب ، بالقرب من لندن .. وهناك وضعت غلاما ، بعد بضعة شهور من فرارها ، اسمته « لينتون » ، وقالت إنه كان منذ مولده عليلا هزيلا شكسا ..

وقابلنى مستر هيثكليف فى القرية ذات يوم ، وسألنى عن المكان الذى نقيم فيه ، فرفضت ان اخبره به .. فقال ان الأمر ليس بذى اهمية لديه ، ولكن عليها ان تحذر الحضور للاقامة مع اخيها .. وليقم بالانفاق عليها إذا شاء ، ولكن على الا تساكنه او نقيم معه .. ومع اننى أبيت الادلاء إليه باية معلومات ، فقد اكتشف ، عن طريق بعض الخدم الآخرين ، المكان الذى نقيم فيه ، ومولد الطفل ايضا .. ولكنه مع ذلك لم يقدم على إزعاجها او ملاحقتها .. وهو إحجام احسبها تحمد له بواعثه وهى نفوره منها وكراهيته لها .. وكان غالبا ما يسألنى عن الغلام ، كلما رآنى .. ولما سمع اسمه ابتسم فى عبوس وقال معقبا :

— انهم يريدون أن اكرهه ايضا .. اليس كذلك ؟ ..

— بل لا احسبهم يريدون أن تعرف عنه شيئا البتة ..

— ولكن سوف آخذه ، عندما اريد .. وليكونوا من ذلك على يقين ..

ومن حسن الحظ ان امه قضت نحبها قبل أن يحين ذلك الوقت .. وكان ذلك بعد وفاة كاثرين بثلاثة عشر عاما ، عندما كان لينتون الصغير فى الثانية عشرة من عمره ، او اكثر قليلا ..

* * *

لم تتح لى اية فرصة للتحدث إلى سيدى غداة زيارة ايزابيلا غير المتوقعة .. فقد كان عزوفا عن الحديث لا تسمح له حالته بمناقشة اى موضوع .. فلما استطعت أن احمله على الإصغاء رأيت أن فراق شقيقته لزوجها قد سره كثيرا ، إذ كان يمقت هيثكليف مقتا شديدا بلغ من الغزارة ما لم اكن احسب ان اعتدال طبيعته يسمح به .. كان نفوره واشمئزازه من العمق والحساسية بحيث كان يتجنب الذهاب إلى اى مكان يحتمل أن يراه فيه او يسمع عنه .. ولهذا السبب ، فضلا عن حزنه العميق ، تحول ادجار إلى ناسك يعتزل الناس والعالم .. فتخلى عن وظيفته القضائية ، وامتنع حتى عن الذهاب إلى الكنيسة ، وتجنب زيارة القرية فى جميع المناسبات ، وراح يمضى حياته فى عزلة تامة داخل حدود بستانه وضياعه ، لا يتجاوزها إلا فى جولة يقوم بها وحيدا بين البرارى ، أو زيارة يؤديها لقبر زوجته ، معظمها فى المساء أو الصباح الباكر قبل ان يخرج غيره من المارة من ديارهم ..

ولكنه كان من الطيبة والتدين بحيث لم يقم على الاستسلام للشقاء طويلا .. لم يكن ـ كما فعل الآخر ـ يدعو روح كاثرين إلى ملازمته وارتياده ! وساهم الزمن فى جعله يذعن للقضاء ، وكساه طابعا من الكآبة احلى من المرح المألوف !.. وكان يستعيد ذكراها فى حب وحنان عميقين ، وفى الدعاء لها بالتنعم بعالم افضل ، لم يكن يشك البتة فى ذهابها إليه ! .. ولكن كان له عزاؤه وعواطفه الدنيوية ايضا .. فقد مكث

أياما حسبته خلالها لا يهتم على الاطلاق بالنبتة الصغيرة التى خلفتها الراحلة .. ولكن جموده ما لبث أن ذاب بأسرع مما تذوب الثلوج فى شهر ابريل ، حتى انه قبل ان تستطيع الصغيرة أن تنطق بكلمة او تخبو خطوة ، كانت تحتل فى قلبه عرشا مكينا .. وسماها كاثرين ، ولكنه لم يكن يدعوها بهذا الاسم كاملا قط ، كما لم يكن يدعو كاثرين الاولى باسمها المصغر قط .. ربما لأن هيثكليف اعتاد ان يدعوها به .. كانت الصغيرة تسمى « كاثى » دائما .. وكان له فى ذلك ما يميزها عن امها ، وما يربطها بها فى الوقت نفسه .. وكان تعلقه بها يفيق من صلتها بأمها اكثر مما ينبعث من أبوته لها ..

وقد اعتدت ان اقارن بينه وبين هندلى ايرنشو ، واكدح فكرى ، فى حيرة ودهشة ، للوصول إلى تفسير يقنعنى لما بدا من تناقض مسلكهما إلى هذا الحد ، فى ظروف متماثلة تماما .. كان كلاهما زوجا شديد الولع بزوجته ، غزير العاطفة نحو طفله ، ومن ثم لم يكن بوسعى أن افهم كيف لا يسلك كلاهما طريقا واحدة ، سواء اكانت نحو الخير ام نحو الشر .. ولكن هندلى ـ كما قلت لنفسى ـ وقد كان اقواهما مراسا واكبرهما عقلا ، قد اثبت انه اسوأ الاثنين واضعفهما .. فعند ما ارتطمت سفينته ، هجر الربان مركزه ، فاندفع البحارة نحو التمرد والفوضى ، بدلا من أن يحاولوا إنقاذ سفينتهم المنكودة ، ولم يدعوا لها ذرة من الأمل فى النجاة .. وعلى العكس من ذلك ، اظهر لينتون تلك الشجاعة الحقة التى تتميز بها النفس المؤمنة المخلصة .. كان يؤمن بالله ويثق به ،

فوهبه الله الراحة والسكينة .. غدا أحدهما مغفلا للأمل ، والآخر فريسة لليأس .. اختار كل منهما نصيبه ، فقدر عليه أن يحتمله بحق .. ولكنك لا تريد أن تسمع منى هذا النقد الأخلاقى يا مستر لو كوود .. وتود أن تحكم بنفسك — مثلما استطعت أن أفعل — على كل هذه الأشياء .. أو هذا على الأقل ما سوف تظن أنك فاعله .. والأمر بعد ذلك سواء .

وجاءت نهاية ايرنشو مثلما كان يمكن للمرء أن يتوقعها .. وقد أعقبت وفاة شقيقته سريعا ، لا يكاد يفصل بينهما أكثر من ستة شهور .. ولم نكن فى « الجرانج » نعرف اقل شىء عن حالته قبل موته ، فكل ما استطعت أن أعرفه إنما سمعت به عند ما ذهبت للمساعدة فى معدات الجنازة .. فقد حضر مستر كينيث ليبلغ النبأ إلى سيدى ، فى صباح أحد الأيام ، وكان الوقت مبكرا ، فلم يشأ أن يصدمنى بذكر الأنباء السيئة مباشرة ، وإنما قال لى وهو يدخل راكبا جواده فى الفناء :

— حسنا يا نللى !.. إنه الآن دورك ودورى فى ارتداء ثياب الحداد .. فمن تظنينه قد غاب عنا اليوم ؟..

فسألته فى لهفة شديدة : من ؟..

فقال وهو يترجل ويعلق عنان الجواد فى الخطاف بجوار الباب :

— لماذا ؟.. عليك أن تحدسى بنفسك .. ثم عليك أن ترفعى طرف مرولتك ، فانى واثق من أنك ستحتاجين إليها ..

فصحت قائلة :

— إنه — يقينا — ليس مستر هيثكليف ؟..

فقال الطبيب :

— ماذا ؟.. وهل كنت تجدين دموعا تذرفينها عليه ؟ .. كلا .. فهيثكليف شاب متين الجسم قوى البنية .. وهو يبدو مشرقا ناضرا اليوم ، فقد رأيته للتو .. وقد بدا جسمه يمتلىء باللحم سريعا منذ أن ضاع نصفه الحلو ..

فعدت أهتف فى صبر نافد :

— من إذن يا مستر كينيث ؟..

— هندلى ايرنشو .. صديقك القديم هندلى ، وصاحبى الدمس المنكود ، ولو انه كان شديد الضراوة معى فى هذه الآونة الطويلة الاخيرة .. آه !.. لقد قلت اننا سوف نفجر الماء من العيون !.. ولكن لا .. دعى عنك البكاء .. فقد مات مخلصا لخلقه ومبادئه !.. مات ثملا كأحد اللوردات !.. آه ! .. يا للفتى المسكين !.. اننى حزين من اجله كذلك .. فالمرء لا يملك إلا أن يحزن لفقد رفيق قديم ، ولو أنه كان يتطوى على أسوأ الصفات التى لا يتخيلها إنسان ، وفعل معى الكثير من أنواع الخداع الدنيئة !.. ويبدو أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره ، أى فى مثل سنك تماما .. فمنذا الذى كان يظن أنكما ولدتما فى سنة واحدة ؟..

واعترف أن تلك اللطمة كانت اشد وقعا على نفسى من صدمة وفاة مسز لينتون .. وبدأت ذكريات أيامنا القديمة تطوف بقلبى ، فجلست فى الشرفة ، ومضيت أبكى بحرقة كأنما أبكى قريبا تربطنى به صلة الدم ، راغبة إلى مستر كينيث أن يدعو خادما أخرى للقعود إلى السيد .. ولم يكن فى

وسعى ان امنع نفسى من إمعان الفكر فى هذا السؤال : « اتراه لقى معاملة كريمة لائقة ؟.. » فانثنى مهما فعلت ، فان هذه الفكرة سوف تظل تلاحقنى وتنغص عيشى .. وقد كانت من الالحاح المضنى بحيث عزمت على ان التمس الإذن لى بالذهاب إلى « مرتفعات ويذرنج » ، لاساهم فى اداء الواجب الاخير نحو الفقيد .. وكان مستر لينتون ، فى بادىء الامر ، يأبى كل الإباء ان يسمح لى بذلك ، ولكنى رحت ادافع فى حرارة وذلاقة لسان عن الحال التى يرقد فيها هندلى مجردا عن الأصدقاء والأحبة ، وقلت ان لسيدى القديم واخى فى الرضاعة ، من الحقوق فى خدماتى ما لا يقل عن حقوق مستر لينتون نفسه .. وفضلا عن ذلك فقد ذكرته بأن هيرتون الطفل هو ابن شقيق زوجته ، وأن من واجبه ، وهو اقرب الناس إليه الآن ، ان يكون حاميه وحارسه .. وقلت إنه ينبغى له ، بل يجب عليه ، ان يتحرى عن الحالة التى تركت بها املاك شقيق زوجته ، وان ينظر فى رعاية مصالحه .. ولكنه كان وقتئذ فى حالة لا تسمح له بمباشرة مثل هذه الشئون ، فأمرنى بأن اتكلم فى ذلك مع محاميه ، ثم سمح لى بالذهاب .. وكان محاميه هو محامى مستر ايرنشو فى الوقت نفسه ، فذهبت إلى زيارته فى القرية ، وسألته ان يصحبنى .. ولكنه هز راسه سلبا ، ونصح لى بأن ندع مستر هيثكليف وشأنه ، مؤكدا انه لو عرفت الحقيقة ، فسيتبين ان هيرتون قد ترك ادنى إلى المعدمين والشحاذين .. ثم اردف قائلا :

— لقد مات ابوه غارقا فى الدين ، بعد أن رهن كل ما يملكه .. والأمل الوحيد امام الوريث الطبيعى الآن ، هو ان نتيح له

الفرصة لكى يخلق فى قلب الدائن شيئا من الاهتمام به بحيث يميل إلى معاملته بنوع من الرفق والتسامح .

فلما بلغت « مرتفعات ويذرنج » ، اوضحت اننى جئت كى اشارك فى عمل الترتيبات اللائقة بالفقيد .. وقد اعرب جوزيف عن ارتياحه لحضورى ، وكان يبدو فى حزن عميق .. أما هيثكليف فقد قال إنه لا يرى ثمة ما يحتاج لوجودى ، ولكن فى وسعى ان ابقى ، وأن آمر بما أراه نحو معدات الجنازة ، إذا رغبت فى ذلك .. ثم عقب قائلا :

— إن الاصوب ان يدفن جثمان هذا المعتوه فى مفترق الطرق دون احتفال من اى نوع .. فقد حدث ان تركته عشر دقائق بعد ظهر الأمس ، فما كان منه فى هذه الفترة الوجيزة إلا ان اوصد ابواب المنزل فى وجهى ، ثم امضى الليل بطوله يشرب الخمر حتى قتل نفسه عن عمد .. وحطمنا الباب فى الصباح ، إذ سمعناه يرسل نخيرا عاليا كالحصان فوجدناه ملقى فوق الأريكة ، غائبا عن الصواب ، لا يفيق ولو سلخنا جلده أو شققنا راسه ! .. وارسلت فى طلب كينيث ، فلم يحضر إلا وقد تحول هذا البهيم إلى رمة ! .. كان ميتا ، باردا ، متيبسا .. وهكذا ترين انه كان من العبث ان نحدث مزيدا من الضجة بسببه ..

وايد الخادم الشيخ هذه الرواية ، ولكنه غمغم يقول :

— كنت افضل أن يذهب فى طلب الطبيب بنفسه ، فانى كنت خليقا بأن اعنى بالسيد خيرا منه .. ثم انه لم يكن قد مات عند ذهابى .. لا شىء من ذلك البتة !

واصررت على ان تشيع جنازته بما يليق به من احترام ، فقال مستر هيتكليف إنه يدع لى التصرف فى هذا الامر كما اشاء ايضا ، ولكنه يود ان يذكرنى بان المال الذى سينفق على الجنازة إنما سيخرج من جيبه هو !.. وكان يبدو جامدا ، فى غير مبالاة ، لا ينم مظهره عن حزن او فرح .. وإن دل على شىء البتة ، فإنما يدل على رضى صارم ، كما يرضى المرء عندما ينتهى بنجاح من مهمة شاقة .. بل لقد لاحظت مرة فى الواقع شيئا يشبه الابتهاج فى مظهره ، وكان ذلك على وجه التحديد عندما حمل النعش إلى خارج المنزل .. ومع ذلك فقد كان من النفاق بحيث ارتدى ثياب الحداد عند تشييع الجنازة .. وقبل ان يغادر المنزل مع هيرتون ، حمل الغلام المنكود ووضعه فوق إحدى الموائد ، ثم غمغم يقول له فى تلذذ غريب : « والآن يا صغيرى العزيز ، لقد اصبحت لى وحدى ، وسوف نرى إن كانت الشجرة لن تشب معوجة كالشجرة الاخرى ، ما دامت الريح التى تهب عليهما وتثنيهما واحدة ! » .. وسر الطفل البرىء لهذا الحديث الذى لم يفته منه شيئا ، وراح يعبث بسوالف هيتكليف ويربت على خده .. ولكنى تكهنت بالمعنى الذى يرمى إليه ، فقلت فى مرارة :

ـ إن هذا الصبى يجب ان يعود معى إلى « ثرشكروس جرانج » يا سيدى ، فهو آخر شىء فى العالم يمكن ان يصبح لك!

فسألنى فى اهتمام : وهل قال ليتون ذلك ؟

ـ بلا شك .. لقد امرنى ان اعود به معى ..

فقال الوغد :

ـ حسنا .. إننا لن نناقش هذا الامر الآن .. ولكن بى

ميلا إلى ان اربى غلاما صغيرا ، فبلغنى سيدك انه إذا حاول اخذ هذا الصبى ، فلا بد لى من ان احل ابنى محله .. ولست اتعهد بترك هيرتون يذهب دون ان انازع حق سيدك فى اخذه ، اما الآخر فانى واثق من إحضاره حتما .. فلا تنسى ان تبلغيه ذلك ..

وكان هذا التلميح كافيا لغل يدى .. فلما عدت اخبرت سيدى بما قال ، ولما كان ادجار لينتون قليل الاكتراث للأمر منذ البداية ، فإنه لم يتكلم عن التدخل فى الامر بعد ذلك قط .. ولست اعتقد انه كان قادرا على عمل شىء ، حتى ولو كان راغبا فى ذلك ..

وهكذا اصبح الضيف سيد « مرتفعات ويذرنج » الآن ، حيث استولى عليها بيد من حديد ، واثبت للمحامى ـ الذى اثبت ذلك لمستر لينتون بدوره ـ أن ايرنشو قد رهن كل شبر من الأراضى التى كان يملكها ليحصل على المال الذى يشبع به جنونه بالمقامرة .. وكان هيتكليف نفسه هو المرتهن ..

وعلى هذا النحو اصبح هيرتون ـ الذى كان ينبغى ان يكون الآن السيد الأول فى المنطقة ـ خالى الوفاض لا يملك شيئا ، ويعتمد اعتمادا كليا على عدو ابيه اللدود ، ويعيش فى منزل اسرته كأحد الخدم ـ وإن كان محروما من ميزة الأجر الذى يتقاضاه الخدم ! ـ وهو عاجز عن استعادة حقوقه ، لأنه محروم من الأصدقاء والأنصار ، ولأنه يجهل كيف كان ضحية الغدر والخيانة ..

* * *

الفصل الثامن عشر

وتابعت مسز دين قصتها فقالت :

كانت الأعوام الاثنا عشر التى تلت تلك الفترة المشئومة ، أسعد أيام حياتى ، فكان أعظم ما لقيته فيها من متاعب ناشئا من تلك الأمراض الطفيفة التى كانت تنتاب أحيانا سيدتنا الصغيرة ، مثلما تصيب جميع الأطفال يستوى فى ذلك الغنى منهم والفقير .. وفيما عدا ذلك فإنها بعد أن اجتازت الشهور الستة الأولى ، نشأت كالشجرة الباسقة ، واستطاعت أن تمشى وأن تتكلم على طريقتها الخاصة ، قبل أن يزهر العشب مرة أخرى حول قبر مسز لينتون ، أى قبل أن يمر عام على وفاتها .. كانت أكثر « الأشياء » استمالة للقلب وأقدر من استطاع ، فى يوم من الأيام ، أن يجلب شعاعا من الشمس إلى المنزل الموحش !

كان محياها آية من آيات الجمال ، فقد ورثت عيون آل ايرنشو السوداء الساحرة ، وورثت من آل لينتون بشرتهم الناصعة البياض ، وملامحهم الدقيقة ، وشعرهم الأشقر المجعد .. وكانت روحها عالية ، فى غير خشونة .. وتميزت بقلب شديد الحساسية والحيوية إلى حد الإفراط فى عواطفه .. وكنت كلما رأيت فيها ذلك الاستعداد للتعلق الشديد بما تهواه ، أذكر أمها .. ومع ذلك فلم تكن تشبهها ، لأنها كانت قادرة على أن تكون وديعة رقيقة كالحمامة ، كما كان لها صوت عذب

جميل ، ومحيا ترتسم فيه علائم التفكير والانشغال .. لم يكن غضبها ثائرا جموحا ، ولم يكن حبها ضاريا عنيفا ، وإنما كان عميقا حنونا .. ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأنه كانت لها أخطاء تشين مزاياها .. من ذلك ميلها إلى الشقاوة ! .. بل وكانت لها إرادة عنيدة كتلك التى يكتسبها الأطفال المدللون سواء أكانوا مسالمين بطبعهم أم مشاكسين .. فلو صادف أن غاظها أحد الخدم فإنها لا تزيد على القول دائما : « سوف أخبر بابا ! .. » .. أما إذا لامها والدها ، ولو بنظرة واحدة ، فإنك تخاله أصابها بما يحطم القلوب ! .. ولست أعتقد أنه خاطبها يوما من الأيام بكلمة خشنة أو عبارة قاسية ..

وقد أخذ على عاتقه أمر تعليمها وتثقيفها بنفسه ، وجعل من ذلك مسلاة له .. ومن حسن الحظ أن سرعة قريحتها وميلها إلى العلم ، فى شغف وفضول ، قد جعلا منها تلميذة مجدة ناجحة .. وكانت تدرس فى سرعة وفهم ، وتلتهم الدروس التهاما اطلع قلب والدها وجزى تعبه فى تعليمها خير الجزاء ..

ولم تكن حتى الثالثة عشرة من عمرها قد خرجت إلى ما وراء حدود البستان وحدها .. كان مستر لينتون ربما صحبها إلى خارج البستان ميلا أو ميلين ، فى مرات نادرة .. ولكنه لم يكن يأمن أن يعهد بها إلى أحد سواه .. كان اسم القرية « جيبرتون » لفظا لا قيمة له ولا معنى فى أذنيها .. وكانت الكنيسة هى المبنى الوحيد الذى اجتازت عتبته ، فيما عدا منزلها .. أما « مرتفعات ويذرنج » و « مستر هيثكليف »

فلم يكن لهما وجود بالنسبة إليها .. كانت تعيش فى عزلة تامة ، وكانت فيما يبدو قانعة بذلك راضية تماما .. واقول « فيما يبدو » لانها كانت احيانا كلما سرحت بانظارها ، من نافذة حجرة العابها ، فى المناظر البعيدة تقول فى تردد :

ـ كم ينبغى ان ينقضى من الوقت يا ايلين قبل ان استطيع السير إلى قمم هذه التلال ؟ .. شد ما اعجب ما الذى يقع فى الناحية الأخرى منها .. هل هو البحر ؟ .

فكنت اقول :

ـ كلا يا مس كاثى .. بل تلال اخرى شبيهة بهذه تماما ..

وسألتنى مرة :

ـ ترى كيف يكون منظر هذه الصخور الذهبية إذا وقفت تحتها ؟ .

وكان السفح الشديد الانحدار لصخرة « بنستون كراجز » يلفت نظرها بصفة خاصة ، ولا سيما عندما تتالق فوقه اشعة الشمس الغاربة ، بينما تلف الظلال سائر قمم التلال والاراضى المجاورة لها .. فقلت لها إنها مجرد كتل من الحجر والصخور الصلدة التى لا تحوى شيئا من التربة يصلح لإنبات شجرة واحدة ..

فتابعت اسئلتها فى إلحاح :

ـ ولماذا تظل مضيئة وقتا طويلا بينما يخيم الظلام هنا ؟ .

ـ لانها مرتفعة ارتفاعا عظيما عن مكاننا هذا .. كما انه ليس فى استطاعتك ان تتسلقيها ، فهى شديدة الارتفاع

شديدة الانحدار ، والثلوج تعلوها فى الشتاء قبل ان تصل إلينا .. بل لقد وجدت الثلوج مرة ، فى اواسط الصيف ، تحت ذلك التجويف الأسود الذى ترينه فى الجانب الشمالى الشرقى !

عندئذ صاحت فى جذل :

ـ آه ! .. هل ذهبت إلى هناك إذن ؟ .. سوف استطيع الذهاب بدورى إذن عندما ابلغ مبلغ النساء ! .. وهل ذهب ابى إلى هناك يا ايلين ؟ ..

فسارعت إلى الإجابة قائلة :

ـ سوف يخبرك ابوك يا آنستى ، انها لا تستحق عناء الزيارة .. إن البرارى التى تتجولين معه فيها ، اعظم منها جمالا وروعة ، كما أن « بستان ثرشكروس » هو اجمل مكان فى العالم ..

فغمغمت كأنما تحدث نفسها :

ـ ولكنى اعرف البستان ولا اعرف هذه التلال ! .. ولسوف يبهجنى أن اقف فوق تلك القمة العالية واجيل انظارى فيما يحيط بى ! .. سوف يأخذنى مهرى الصغير « ميني » إلى هناك يوما من الايام !

وذكرت إحدى الوصيفات امامها مرة اسم « كهف الحوريات » فادار ذكره رأسها بالرغبة فى تنفيذ هذا المشروع ، وكانت لا تفتأ تكدر صفو والدها بالحديث عنه ، فكان يعدها بأن تقوم بهذه الرحلة عندما تتقدم فى العمر .. ولكن مس كاثرين

كانت تقيس عمرها بالشهور ، فكان السؤال الذى لا يبارح شفتيها : « والآن ، هل كبرت بما يكفى لذهابى إلى بنستون كراجز ؟ .. » ولكن الطريق إلى هناك كان يدور ملاصقا « لمرتفعات ويذرنج » ، ولم يكن ادجار يميل إلى المرور بها ، وهكذا كانت تتلقى دائما هذه الإجابة : « كلا يا حبيبتى ! .. لم يحن الوقت بعد ! » .

قلت ان مسز هيثكليف عاشت أكثر من اثنى عشر عاما بعد ان هجرت زوجها ، وأضيف أن افراد اسرتها كانوا جميعا ضعاف البنية ، فكانت تنقصها ، كما تنقص ادجار ، تلك الصحة الياتمة التى تلقاها عادة فى اهل هذه المنطقة .. ولست ادرى عن يقين ماذا كان مرضها الأخير ، ولكنى احسب انها وأخاها قد ماتا بمرض واحد ، هو نوع من الحمى بطيئة الظهور فى بدايتها ، ولكنها غير قابلة للشفاء ، وتلتهم الحياة سريعا فى النهاية .. وقد كتبت إلى اخيها لتخبره بقرب نهايتها بعد مرض الزمها الفراش اربعة شهور متوالية ، ورجته ان يذهب إليها ، إذا استطاع ، لأن لديها الكثير من الأمور التى تريد تسويتها ، ولأنها تريد أن تودعه الوداع الأخير ، وتعهد إليه بليينتون الصغير آمنة مطمئنة .. وكانت ترجو أن يترك هيثكليف لينتون مع خاله ، كما كان معها ، وتجد سرورا فى إقناع نفسها بأن اباه كان عزوفا عن الاضطلاع بإعالته او تعليمه .. فلم يتردد سيدى لحظة واحدة فى الاستجابة لرجائها .. وعلى الرغم من نفوره من مغادرة منزله فى الزيارات العادية ، كما كان عهده فى الآونة الأخيرة فإنه سارع إلى تلبية تلك الدعوة .

وعهد بكاترين إلى عنايتى الساهرة اثناء غيابه ، واصدر لى اوامره المشددة بالا ادعها تجوب خارج البستان ، ولو فى صحبتى .. اما خروجها وحدها فلم يخطر له على بال .

وطالت غيبته ثلاثة اسابيع .. ففى اليومين الأولين كانت الصغيرة المعهود بها لعنايتى تجلس فى ركن المكتبة وقد منعها الحزن من القراءة او اللعب ، وهكذا لم تسبب لى إلا القليل من المتاعب وهى فى هذه الحالة من الهدوء والسكينة .. ثم تلت ذلك فترة من الملل المصحوب بضيق الصدر والمشاكسة .. وإذ كنت كثيرة المشاغل ، وقد تقدم بى العمر ، وليس فى وسعى أن أجاريها فى القفز والجرى والصعود والهبوط لتسليتها ، فقد استنبطت طريقة تستطيع بها أن تسلى نفسها بنفسها .. وذلك بأن ابعث بها لتقوم بالتجوال وحدها داخل حدود المزرعة ، سيرا على الأقدام تارة وراكبة مهرها الصغير تارة أخرى ، ثم اطلقها بالإصغاء فى مسير وأناة إلى قصص مغامراتها الحقيقية والخيالية ، عندما تعود من جولاتها ..

كان الصيف مشرقا بكل روعته وبهجته ، فكانت تجد متعة كبيرة فى هذه النزهات الانفرادية ، بحيث كانت كثيرا ما تبقى خارج الدار من وقت الإفطار حتى موعد الشاى بعد الظهر ، ثم تتشى امسياتها فى رواية قصصها الخيالية المثيرة .. ولم اكن اخشى أن تخترق الحدود المرسومة لها ، لأن البوابات كانت عادة محكمة الغلق ، ولأنى حسبتها لا تجرؤ على اجتيازها والتوغل خارجها وحدها لو انها كانت مفتوحة على مصراعيها ..

ولكنى سرعان ما تبينت ـ لسوء الحظ ـ ان ثقتى لم تكن فى موضعها .. فقد حضرت لى كاثرين ذات صباح ، فى الساعة الثامنة ، وقالت إنها سوف تكون اليوم تاجرا عربيا يعبر الصحراء بقافلته ، وان على ان أوفر لها المزيد من المؤن لنفسها ولسائر أعضاء القافلة من الدواب ، وهى حصانها وثلاثة « جمال » ممثلة فى كلب سلوقى كبير واثنين من كلاب الصيد .. فأعددت لها كمية وفيرة من الفطائر والحلوى وجمعتها فى سلة علقتها على احد جانبى سرج الحصان ، وعندئذ اعتلت ظهره فى خفة ومرح ، وقد ارتدت تبعتها ذات الحافة العريضة والنقاب الحريرى الخفيف ليحميا راسها ووجهها من شمس يوليو القاسية ، ثم انطلقت تعدو بالجواد وهى تطلق ضحكة مرحة ، وتسخر من نصائحى وتحذيراتى بتجنب الإسراع فى السير ، والتبكير فى الحضور .. ولكن الخيبة لم تظهر حتى موعد تناول الشاى ، ولم يعد من افراد قافلتها سوى الكلب السلوقى إذ كان متقدما فى العمر مغرما بالراحة والاسترخاء .. اما كاثى والمهر وكلبا الصيد فلم يظهر لأى منهم اثر فى اى مكان .. وبعثت بالرسل يجوسون خلال الممرات فى البستان والمزارع ، واخيرا مضيت للبحث عنها بنفسى .. والتقيت بعامل يشتغل فى إصلاح السياج حول أحد الحقول ، عند حدود مزرعتنا ، وسألته إن كان قد رأى سيدتنا الصغيرة ، فقال :

ـ لقد رأيتها فى الصباح حيث طلبت منى ان اقطع لها غصنا من شجرة البندق ، ثم وثبت بجوادها فوق السور عند

ثم انطلقت تعدو بالجواد وهى تطلق ضحكة مرحة ، وتسخر من نصائحى وتحذيراتى بتجنب الاسراع فى السير ..

تلك البقعة التى يتخفض فيها أكثر من غيرها ، وأسرعت تعدو حتى اختفت عن الأنظار !

ولك أن تتصور مبلغ ما اعترانى من جزع لدى سماعى هذه الأنباء ، وخطر لى على الفور أنها لا بد قد ذهبت إلى « صخور بنستون » التى كانت تتوق لرؤيتها عن كثب .. فهتفت أقول لنفسى : « ويلاه ! .. ماذا يكون مصيرها ؟ .. » ثم اندفعت خلال الثغرة التى كان العامل يصلحها فى السياج ، ومضيت قدما نحو الطريق ، أغذ السير كأننى فى سباق ، واقطع القفار ميلا بعد ميل ، حتى بلغت منحنى أرى عنده « مرتفعات ويذرنج » ، ولكنى لم أتبين أثرا لكائرين من قرب أو من بعد .. وكانت « صخور بنستون » تقع على بعد ميل ونصف من مسكن مستر هيثكليف ، كما كان ذلك يبعد عن « الجرانج » بأربعة أميال ، وهكذا بدأت أخشى أن يهبط الظلام قبل أن أستطيع بلوغها ، ورحت أغمغم قائلة لنفسى : « وماذا يكون الحال لو كانت قد زلت قدمها فى أثناء تسلق الصخور ، فسقطت قتيلا ، أو كسرت بعض عظامها ؟ .. » والواقع أن جزعى كان اليما أشد الألم ، ولذلك غمرنى سرور الارتياح ـ بادىء ذى بدء ـ عندما كنت أسرع السير بجوار (المرتفعات) فإذا بى أرى « شارلى » أحد كلبى الصيد ، بل أشرسهما ، ملقى تحت إحدى النوافذ ، وقد ورم رأسه وأخذ الدم ينزف من أذنه .. ففتحت باب السور وأسرعت إلى المنزل ورحت أطرق بابه بقوة ولهفة ، وما لبث أن فتح عن امرأة كنت أعرفها ، كانت تعيش من قبل فى جيمرتون

والتحقت بالخدمة هنا على أثر وفاة مستر ايرنشو ، فما كادت ترانى حتى صاحت :

ـ آه ! .. هل أتيت للبحث عن سيدتك الصغيرة ؟ .. لا تخشى شيئا .. إنها هنا بخير وسلامة .. ولكنى مسرورة لأنه لم يكن السيد هو الذى يطرق الباب ..

فغمغمت مبهورة الأنفاس من المشى السريع واللهفة والقلق :

ـ إنه ليس فى المنزل إذن ؟

ـ كلا .. كلا .. لقد خرج هو وجوزيف ولا أحسبهما يعودان قبل ساعة أو تزيد .. ادخلى وارتاحى قليلا ..

فدخلت ، وإذا بى أرى حملى الشارد جالسة بجوار المدفأة ، تتأرجح فى مقعد صغير كان لأمها وهى صغيرة .. وكانت قبعتها معلقة فى مشجب على الجدار ، بينما كانت تبدو فى راحة واطمئنان كأنها فى بيتها ، وقد راحت تمرح وتتحدث فى طلاقة إلى هيرتون ـ الذى أصبح الآن شابا قويا فى الثامنة عشرة ـ وهى فى أحسن حالاتها النفسية .. وكان هيرتون يحملق بانظاره إليها فى دهشة وذهول بالغين ، ولا يفقه إلا أقل القليل من ذلك الفيض المتتابع من الملاحظات والأسئلة التى كان لسانها الذلق لا يكف عن صبها فى أذنيه ..

وأخفيت فرحتى برؤيتها سالمة وراء قناع من الغضب والاستياء ، وصحت :

ـ مرحى .. مرحى .. يا آنسة ! .. سوف تكون هذه آخر مرة تركبين فيها جوادك ، حتى يعود أبوك من سفره ..

وما عدت اثق بك او اطمئن إلى اجتيازك عتبة الدار ايتهـا الفتاة الشقية !

فهتفت فى مرح وهى تثب من مجلسها وتسرع إلى جانبى :

ـ آه يا ايلين ! .. سوف تكون لدى قصة رائعة لارويها لك الليلة ! .. ولكن اراك عثرت على ، فهل اتيت إلى هـذا المنزل فى حياتك قبل الآن ؟

فتجاهلت سؤالها ، وقلت فى صرامة :

ـ ضعى قبعتك وهيا إلى المنزل على الفـور .. وإننى شديدة الاستياء منك ، يا مس كاثى ، فقد اتيت خطأ جسيما .. ولا فائدة من العبوس او البكاء ، فإن ذلك لن يجـزى ما سببته لى من قلق وجزع بينما كنت اذرع المتلفة طولا وعرضا فى البحث عنك ! .. وكلما فكرت كيف عهد لى مستر لينتون بالمحافظة عليك ومنعك من الخـروج من المزرعة ، وإذا بك تتسللين إلى الخارج على هذا النحو ، ازددت اسـتياء من مسلكك .. وهذا يدل على انك ثعلب صغير ماكر ، ولن يضع احد ثقته بك بعد ذلك قط !

وكانت قد بدأت فى النحيب ، فإذا بها تكف دفعة واحدة ، وتقول :

ـ ما الذى فعلته ؟ .. ان ابى لم يأمرنى بشىء .. كما انه لن يؤنبنى يا ايلين ، فإنه لم يكن قط صارما قاسيا مثلك !

فعدت اقول :

ـ هيا .. هيا .. سوف اربط لك شريط القبعة .. والآن

دعينا من المشاكسة .. آه ! .. يا للعار ! .. اتكونين فى الثالثة عشرة ، وتتصرفين كطفلة صغيرة ؟

وقد فهمت بهذه الملاحظة الاخيرة عندما دفعت القبعة عن رأسها واسرعت تقف بجوار المدفأة بعيدا عن متناول يدى ..

وتدخلت الخادمة قائلة :

ـ رويدك ، ولا تكونى قاسية على الصبية الطيبة يا مسز دين !.. إننا نحن الذين جعلناها تتوقف هنا ، إذ كانت تتوق إلى المضى فى طريقها ، خشية ان تقلقى عليها .. وقد عرض عليها هيرتون ان يذهب معهـا ، واحسب انه كان ينبغى أن يرافقها ، لأن الطريق فوق التلال شديد الوعورة ..

وكان هيرتون فى اثناء هـذا النقاش يقف واضعا يديه فى جيبى سراويله ، وقد استبد به الارتباك فلم يستطع النطق بكلمة واحدة ، وإن كان يبدو غير مرتاح إلى تطفلى !

واستطردت اقول غير مكترثة بتدخل المرأة :

ـ كم من الوقت يجب ان انتظرها ؟ .. سـوف يحل الظلام بعد عشر دقائق .. فأين مهـرك يا مس كاثى ؟ .. وأين « فينكس » ؟ .. سوف اتركك وامضى لشأنى ، ما لم تسرعى .. فافعلى ما يحلو لك !

ـ إن المهر فى الفناء .. أما فينكس فمحبوس هناك ، لأنه معضوض ، وكذلك شارلى .. وقد كنت على وشك ان اخبرك بكل شىء فى هذا الأمر ، ولكنك سيئة الخلق ، ولا تستحقين الاستماع إلى روايتى !

والتقطت القبعة من الأرض ، واقتربت منها لأضعها فوق راسها ثانية ، ولكنها إذ رات الشاب والخادمة ينحازان لصفها ، بدات تقفز حول الحجرة بعيدا عنى .. وشرعت فى مطاردتها فإذا بها تجرى هنا وهناك كالجرذ فوق قطع الأثاث وتحتها وخلفها ، مما جعل استمرارى فى المطاردة مثيرا للسخرية ، فضحك هيرتون والخادمة ، وشاركتهما هى فى الضحك ، وأمعنت فى القحة حتى صحت اخيرا فى انفعال شديد :

ـ حسنا يا مس كاثى .. لو انك عرفت منزل من هذا لكان يسرك ان تغادريه على الفور ..

فنظرت هى إلى هيرتون قائلة :

ـ إنه منزل ابيك ، اليس كذلك ؟

فلم ينطق إلا بكلمة « كلا » ، وقد اغضى بنظراته إلى الأرض واحمر وجهه احمرارا شديدا من الخجل .. فلم يكن يقوى على الصمود امام نظراتها الثابتة ولو ان عينيها كانتا تشبهان عينيه تماما ..

فعادت تسأله :

ـ منزل من إذن ؟ .. سيدك ؟

فازداد تورد وجهه عمقا حتى غدا ارجوانى اللون ، ولكن عن شعور يختلف عن شعوره الأول ، وغمغم بكلمة سباب ، ثم اشاح بوجهه بعيدا ..

فاستطردت الفتاة المتعبة وهى توجه لى الخطاب :

ـ من هو سيده ؟ .. لقد كان يتكلم فيقول « بيتنا » ، و « تومنا » .. ولذلك حسبته ابن صاحب المنزل .. ثم إنه لم يقل ابدا « يا سيدتى » وهو يخاطبنى ، وكان يجب أن يقولها إذا كان خادما ، اليس كذلك ؟

فغدا وجه هيرتون رماديا داكنا كسحابة كثيفة مشحونة بالرعد ، بينما جذبت محدثتى فى صمت ، وانلحت اخيرا فى إعدادها للرحيل .. وما لبثت أن خاطبت ابن خالها المجهول بمثل ما تخاطب واحدا من سياس « الجرانج » قائلة :

ـ اذهب الآن واحضر جوادى .. ويمكنك أن تأتى معى ، فإنى أريد ان ارى اين ينهض صائد المغاربت من وسط المستنقعات ، واسمع الحديث عن الجنيات كما تسميهن .. ولكن اسرع ! .. ماذا دهاك ؟ .. لقد أمرتك بأن تحضر لى الجواد ..

فزمجر الشاب قائلا : « سوف اراك هالكة فى الجحيم قبل أن اكون خادما لك ! » .

فقالت كاثرين فى دهشة : سوف ترانى ماذا ؟

ـ هالكة فى الجحيم ايتها الساحرة السليطة اللسان !

فتدخلت قائلة :

ـ كفى يا مس كاثى ! .. لقد رايت انك زججت بنفسك فى رفقة غير لائقة بك .. امثل هذه الالفاظ توجه إلى سيدة شابة ؟.. ولكنى ارجوك الا تبدئى النقاش والشجار معه ، وتعالى نبحث عن « المهر مينى » بنفسنا ونرحل من هنا ..

فهتفت تقول ، وقد شلت الدهشة البالغة حواسها :

ـ ولكن كيف يجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة يا ايلين ؟ .. اليس المفروض أن يطيع ما آمره به ؟ .. سوف أخبر ابى بما فعله ايها المخلوق الشرير .. والآن !

فلم يبد على هيرتون ما ينم على اكتراثه بهذا الوعيد ، وهكذا انبثقت الدموع من عينيها لشعورها بالمهانة ، وتحولت إلى المراة ، صائحة :

ـ اذهبى انت فاحضرى المهر واطلقى سراح الكلب فى التو واللحظة !

فاجابتها الخادم :

ـ حنانك يا آنسة !.. إنك لن تخسرى شيئا بالرقة وحسن المعاملة .. ومع أن مستر هيرتون هذا ليس ابن صاحب الدار ، إلا أنه ابن خالك .. اما انا فلم يؤجرنى احد لخدمتك !

فصاحت كاثرين فى ضحكة ساخرة : هو ؟ .. هو ابن خالى انا ؟ ..

ـ نعم .. هذه هى الحقيقة ..

فنظرت إلى فى قلق بالغ وتابعت الحديث :

ـ آواه يا ايلين ! .. لا تدعيهم يقولون مثل هذه الأشياء الفظيعة .. لقد ذهب ابى ليحضر ابن عمتى من لندن ، وهو ابن احد السادة ! .. اما هذا ..

وكفت عن الكلام وانفجرت باكية ، إذ قلب كيانها مجرد التفكير فى وجود صلة من القرابة بينها وبين هذا المهرج ..

فهمست اقول لها :

ـ صه .. صه !.. إن الناس يمكن أن يكون لهم ابناء عمومة وابناء خؤولة عديدون ومن كل نوع ، يامس كائى ، دون ان يسوؤهم ذلك .. وكل ما فى الأمر انه لا ينبغى لهم أن يختلطوا بهم أو يلزموا صحبتهم إذا كانوا شريرين بغضاء ..

ـ ولكنه ليس .. إنه لا يمكن أن يكون ابن خالى يا ايلين !

وكانت كلما أمعنت التفكير فى الأمر ازدادت حزنا وهما ، حتى التت بنفسها بين ذراعى كأنما تحتمى بى من هذه الفكرة ..

اما انا فقد اشتد بى الضيق والكدر منها ومن الخادمة معا لتصريحاتهما المتبادلة ! .. فلم اشك لحظة أن قرب وصول ليتون ، الذى ذكرته كائى ، سوف يبلغ لمستر هيثكليف .. وكنت موقنة اشد اليقين من أن اول ما ستفعله كاثرين عند عودة والدها هو أن تطلب منه إيضاحا لما ذكرته الخادمة عن قرابتها لهذا الفتى الجلف السيىء الأدب !

وكان هيرتون قد افاق من نفوره واشمئزازه من اعتباره احد الخدم ، وبدا عليه التاثر لحزنها واساها .. فمضى واحضر المهر امام الباب ، ثم اراد استرضاءها فأخذ من الوجار جروا صغيرا معوج السيقان ووضعه فى يدها وهو يطلب إليها ان تهدىء من روعها لانه لم يكن يقصد شيئا .. فتمهلت فى البكاء ربثما رمقته بنظرة فاحصة ملؤها الخوف والفزع ، ثم انفجرت باكية من جديد !

ولم استطع مغالبة الابتسام لهذا النفور من الفتى المسكين الذى رايته الآن شابا رياضيا متين البنيان وسيم الطلعة ممتلئا

صحة وعافية ، إلا أنه يرتدى ثيابا خشنة رثة تلائم أعماله اليومية فى الحقل ، وجولاته الدائمة فى البرارى سعيا وراء الأرانب الجبلية وغيرها من أنواع الصيد والقنص .. ومع ذلك خيل إلى اننى استطيع أن استشف وراء محياه عقلا يحوى من الصفات والمزايا ما لم يتح لأبيه قط .. ومن المحتق أن هناك اشياء كثيرة طيبة تختفى وسط الاعشاب والحشائش ويطغى عليها تكاثرها الكثيف السريع فيخفى تحته نموها البطىء الذى لا يجد العناية الكافية لكى يؤتى ثماره .. ومع ذلك فقد رايت الدلائل على تربة غنية قد تغل ثمارا وفيرة لو اتيحت لها ظروف أكثر ملاءمة .. واحسب ان مستر هيثكليف لم يسىء معاملته بدنيا ، والفضل فى ذلك يرجع إلى طبيعة الفتى الذى شب لا يعرف الخوف ، والتى كانت بذلك لا تتيح الفرصة للإغراء بمثل هذا النوع من الاضطهاد .. فلم يكن على شىء من الخجل والاستكانة التى كان يمكن لهيثكليف أن يجد فيها دافعا لسوء معاملته له .. وهكذا يبدو انه إنما كرس حقده وضغينته ليجعل منه بهيما جاهلا فظ الخلق .. فلم يلقن شيئا من مبادىء القراءة والكتابة ، ولم يزجر يوما عن خلة سيئة طالما لم تكن تسبب لسجانه ضيقا أو غضبا ، ولم تقد قدماه خطوة واحدة فى طريق الفضيلة ، ولا صين خلته بنصيحة واحدة عن مهاوى الرذيلة .. وكان لجوزيف ـ فيما سمعت ـ نصيب وفير فى دماره ، إذ كان تحيزه له ـ وهو تحيز ناجم عن ضيق عقله ـ يدفعه إلى تملقه وتدليله فكان صبيا صغيرا ، لانه كان يعده راس العائلة العريقة القديمة .. وبينما كان لا ينفك يتهم كاثرين ايرنشو وهيثكليف ـ عندما

كانا صغيرين حدثين ـ بإثارة السيد واستنفاد صبره ، فدفعه بذلك إلى البحث فى الخمر عن السلوى والعزاء مما كان يسميه « اساليبهما الشريرة » ، فإنه صار الآن يلقى عبء اخطاء هيرتون كلها على عاتق الغاصب الذى سلب أملاكه .. فإذا انطلق الصبى فى الشباب لم يحاول تهذيبه ، وكذلك لم يحاول تقويمه مهما كان مسلكه مليئا بالذنوب والأخطاء .. ويظهر أن جوزيف كان راضيا كل الرضى وهو يراه ينحدر إلى أسوأ مدى .. فقد سمح بدمار الصبى ، وبترك روحه تهيم فى وديان الضلال ، لا لشىء إلا لاعتقاده بأن هيثكليف هو الذى سوف يكفر عن ذلك كله !.. وكان يعتقد أن هيرتون يجب ان يحفظ دماء اسرته العريقة فى ذرية ينجبها ، فكان يجد فى هذه الفكرة عزاء ما بعده عزاء .. وكان جوزيف لا يفتأ يسب فيه ، قطرة بعد قطرة ، كبرياء الاعتزاز باسم عائلته وسلالته .. وكان يود ـ لو وجد الجراة على ذلك ـ أن ينمى فيه الحقد والكراهية نحو مالك « مرتفعات ويذرنج » الحالى .. ولكن نزعه ورهبته من ذلك المالك كانا قد بلغا مرتبة الفزع من الشياطين والأرواح الشريرة !.. فكان يقصر مشاعره حياله على الغمز والتلميح فى غمغمة خافتة ، وعلى الوعيد بالويل والثبور .. فى سره !.. ولست ازعم اننى اعلم عن يقين مجرى الأمور فى « مرتفعات ويذرنج » فى تلك الأيام ، وإنما اروى ما كنت اسمعه ، لاننى لم اكن ارى هنا إلا اقل القليل .. وكان القرويون يؤكدون أن مستر هيثكليف رجل شحيح يسوم مستأجريه العذاب ويقسو عليهم .. غير أننى

اشهد ، والحق يقال ، أن المنزل من الداخل استعاد مظاهره القديمة من النظافة وتوفر وسائل الراحة ، تحت إدارة النساء اللواتى استخدمهن ، وان مشاهد العربدة والشغب التى كانت تمثل أيام هندلى لم يعد لها وجود بين جدرانه الآن .. فقد كان السيد من الحزن والكآبة بحيث عزف عن مخالطة الناس ونشدان صحبتهم ، خيارهم واشرارهم معا .. وما زال كذلك حتى الآن ..

ومهما يكن من أمر فان ذلك لا شأن له بمجرى قصتى .. ولنعد إلى مس كاثى ، فقد رفضت قبول هدية الصلح ، وهى الجرو الرضيع ، وطلبت أن يؤتى لها بكلبيها « شارلى وفينكس » ، فجاءا يعرجان ، وقد تدلى راساهما .. وعندئذ بدأنا فى رحلة العودة إلى المنزل ، على أسوأ ما تكون الرحلات، وكل واحدة منا تحمل همها واساها .. ولم افلح فى ان استخلص من سيدتى الصغيرة كيف قضت يومها ، سوى ذلك الشىء الذى حدسته ، وهو أن كعبتها كانت فى ذلك اليوم « صخور بنستون » .. وانها وصلت بغير حادث حتى باب (مرتفعات ويذرنج) ، عندما تصادف اندفاع هيرتون وفى صحبته رفقة من الكلاب لم تلبث أن هاجمت قافلتها .. وكانت المعركة حامية الوطيس حتى استطاع سادة الفريقين التفريق بينهما .. وكان هذا الحادث سببا للتعارف بينهما ، فقد اطلعت كاثرين هيرتون على شخصيتها ، واخبرته بما اعتزمته من الذهاب إلى التلال ، ثم سالته أن يرشدها إلى الطريق ، واخيرا استدرجته إلى مصاحبتها .. وقد كشف لها عن أسرار « كهف

الجنيات » وعشرات غيره من الأماكن العجيبة .. ولكنها ، وقد كانت غاضبة منى ، لم تر أن تمن على بوصف ما شاهدته من الأشياء المسلية الغريبة .. ومع ذلك استطعت أن اتبين أن رفيقها ودليلها كان موضع رضاها حتى آذت شعوره بمخاطبته كاحد الخدم ، وحتى آذت خادمة هيثكليف شعورها بما زعمته من انه ابن خالها !.. ثم جاءت تلك الالفاظ الشنيعة التى وجهها إليها فملأت قلبها حقدا والما !.. وهى التى كانت تسمع دائما الفاظ « حبيبتى » و « عزيزتى » و « ملكتى » و « ملاكى » يخاطبها بها كل إنسان فى « الجرانج » ، فوجه إليها الآن السباب الشائن من شخص غريب !.. انها لم تكن تفهم لذلك سببا .. وقد بذلت جهدا شاقا لأنال منها وعدا باخفاء احزانها عن والدها ، وشرحت لها كيف انه لا يرتاح إلى أى مخلوق ممن يسكنون « المرتفعات » ، وكم يكون مبلغ اسفه واساه لو عرف انها كانت هناك .. ولكن النقطة التى الححت فيها كثيرا ، هى تلك الحقيقة الواقعة هى انها لو افشت له اهمالى لأوامره، فربما بلغ به الغضب إلى حد يضطرنى إلى ترك المنزل .. ولم تكن كاثى لتقوى على احتمال هذه النتيجة الاليمة ، ومن ثم وعدتنى بكتمان الأمر ، إكراما لى ، وحافظت على هذا الوعد .. فقد كانت ، على أية حال ، فتاة رقيقة الشعور حلوة الشمائل.

* * *

الفصل التاسع عشر

ثم وافانى خطاب مجلل بالسواد ، يعلن موعد عودة سيدى. فقد ماتت ايزابيلا ، وكتب لى السيد طالبا تحضير ثياب الحداد لابنته ، واعداد حجرة خاصة ، وغيرها من وسائل الراحة ، لابن اخته الصغير .. وقد جنت كاثرين فرحا من التفكير فى قرب استقبالها لأبيها عائدا من رحلته ، واستسلمت إلى تصورات حماسية لما ترجوه من مزايا لاعدد لها لابن عمتها « الحقيقى » .. ثم حلت تلك الأمسية التى كنا نتوقع وصولهما فيها .. وكانت كاثرين منذ الصباح الباكر منهمكة فى ترتيب اشيائها الخاصة الصغيرة .. اما الآن ، وقد ارتدت ثوبها الأسود الجديد ـ ويا للطفلة المسكينة !.. إن موت عمتها لم يغمر نفسها بحزن واضح المعالم ـ فقد اضطرتنى بضايقاتها الكثيرة المستمرة ، إلى السير معها حتى نهاية ارضنا لنكون فى استقبالهما ..

ومشت تثرثر ونحن نتمشى الهوينى فوق المرتفعات والمنخفضات المكسوة بالعشب الندى تحت ظلال الأشجار :

ـ ان لينتون لا يصغرنى إلا بستة شهور .. فما أجمل ان يكون رفيقى فى اللعب !.. وكانت عمتى ايزابيلا قد بعثت إلى ابى بخصلة من شعره الجميل ، فإذا به لا يقل نعومة عن شعرى وإن كان يفوقه فى خلته وشقرته .. وقد احتفظت بها فى عناية داخل صندوق صغير من الزجاج ، وكثيرا ما كنت

افكر انه سوف يكون أمرا بهيجا لو أتيح لى ان ارى صاحبها عيانا !.. آه !.. اننى سعيدة حقا !.. فها هو ابى العزيز ، ابى المحبوب يوشك على المجىء !.. تعالى يا ايلين .. دعينا نجر إلى البوابة .. تعالى نجر معا ..

واخذت تعدو ، ثم تعود ثانية ثم تجرى لتعود من جديد عدة مرات ، قبل أن تسعفنى خطواتى المتئدة الكليلة ببلوغ البوابة .. وهناك جلست فوق العشب الأخضر على جانب الممر ، وحاولت جعلها تتذرع بالصبر فى الانتظار .. ولكن ذلك كان محالا .. فلم تستقر فى جلستها دقيقة واحدة .. وكانت لاتنى تهتف بى :

ـ ما اشد بطئها فى الحضور !.. آه !.. اننى ارى سحابة من الغبار فى الطريق .. فلعلها قادمان ؟.. ولكن لا .. متى يصلان إلى هنا إذن ؟ .. الا نمضى فى الطريق قليلا يا ايلين ؟.. نصف ميل مثلا ؟.. مجرد نصف ميل فقط ؟ .. الا قولى نعم .. دعينا نمض حتى تلك الخميلة من الشجر عند منعطف الطريق !

ولكنى رفضت فى إصرار .. واخيرا انتهى انتظارها ، فقد ظهرت عربة السفر وهى قادمة تعدو فى الطريق .. وصاحت مس كاثى ومدت ذراعيها إلى الأمام ، عندما رات وجه ابيها يطل من النافذة .. وهبط ابوها من العربة وهو لا يقل عنها لهفة وشوقا ، فمضت فترة طويلة قبل ان يفكر احدهما فى شىء غير شخصيهما .. وانتهزت فرصة استغراقهما فى

العناق والقبلات ، فمضيت أختلس النظر إلى لينتون الصغير ، وكان نائما فى ركن المقعد ، متدثرا بمعطف سميك ذى أطراف من الفراء ، كما لو كنا فى صميم الشتاء .. فوجدته غلاما شاحب الوجه ، رقيق الجسم ، تحسبه فتاة لما يبدو فى مظهره من ضعف أنثوى .. وكان الشبه بينه وبين سيدى من القوة بحيث تخاله أخاه الأصغر .. ولكن كان فى مظهره من الوهن والضعف والمرض ما لم يكن لادجار لينتون قط .. ورآنى سيدى أنظر إلى الغلام ، فنصحنى ـ بعد أن صافحنى ـ بأن أغلق باب العربة وأن أدعه نائما لأن الرحلة أتعبته .. وكانت كاثى تتوق إلى أن تلقى عليه نظرة ، ولكن والدها طلب إليها أن ترافقه ، ومشيا سويا فى الحديقة ، بينما أسرعت أسبقهما لأخبر الخدم بمقدم السيد ..

ووقفا عند أسفل الدرج الأمامى ، حيث قال مستر لينتون مخاطبا ابنته :

ـ والآن يا عزيزتى .. ان ابن عمك ليس فى مثل قوتك أو مرحك ، ولا تنسى أنه فقد والدته منذ عهد قصير .. فلا تنتظرى منه أن يشاركك اللعب والجرى من أول يوم .. كما أرجو ألا تثقلى عليه بالكلام ، وأن تدعيه هادئا هذا المساء على الأقل ..

فأجابت كاثرين :

ـ سمعا وطاعة يا أبتاه !.. ولكنى أريد أن أراه ، فانه لم يظل من العربة مرة واحدة !

ووقفت العربة أمام الدرج فأوقظ النائم وحمل إلى الأرض حيث وقف إلى جوار خاله ، الذى وضع يده الصغيرة فى يد ابنته ، قائلا :

ـ هذه ابنة خالك كاثى ، يالينتون .. وقد أولعت بك من قبل أن تراك ، فلا تحزنها بالبكاء الليلة ، وحاول أن تبتسم الآن فقد انتهت الرحلة الشاقة ، ولم يبق إلا أن تنال قسطك من الراحة وأن تمرح كما تشاء ..

فتراجع الغلام نافرا من مصافحة كاثرين ، ورفع يده ليمسح عبراته التى بدأت تتلألأ بين أهدابه ، ثم قال :

ـ دعنى أذهب إلى الفراش إذن ..

فهمست قائلة له ، بينما كنت أقوده نحو باب المنزل :

ـ تعال .. تعال ، أيها الغلام الطيب .. انك بذلك تدفعها إلى البكاء مثلك .. انظر كيف تبدو حزينة من أجلك !

ولست أدرى هل كان اكتئابها بسببه أم من أجله ، ولكن الواقع أن ابنة خاله كان يخيم على أساريرها من الحزن والكآبة مظلما كان يبدو فى محياه ، عند ما رجعت ثانية إلى جانب والدها .. ودلف ثلاثتهم إلى المنزل ، وارتقوا الدرج إلى قاعة المكتبة ، حيث كان الشاى معدا لهم .. ومضيت أنزع قبعة لينتون ومعطفه ، ثم أجلسته فوق أحد المقاعد بجوار المائدة ، ولكنه ما كاد يجلس حتى بدأ فى النحيب من جديد .. فسأله السيد عن سبب بكائه ، فأجاب وهو يشرق بدموعه :

ـ اننى لا استطيع الجلوس على المقعد .

فقال خاله فى حلم وأناة :

ـ اذهب إلى الأريكة إذن ، وسوف تحمل إليك ايلين الشاى ..

وشعرت بأن السيد قد لقى عناء شديدا طوال رحلته ، بسبب ربيبه العليل المشاكس ، وانه قد تحمله فى صبر وحلم لا ينفذان ..

وراح لينتون يجر قدميه المتثاقلتين حتى بلغ الاريكة ، فاستلقى فوقها ، بينما حملت كاثى قدحها ومقعدا منخفضا ، وانت تجلس بجواره .. ولبثت صامتة فى بادىء الأمر ، ولكن ذلك لم يطل كثيرا ، فقد استقر عزمها على أن تجعل من ابن عمتها الصغير ملهاة لها ، كما ارادت ان يكون بالنسبة إليها .. فبدات تربت على خصلات شعره ، وتقبل وجنته ، وتقدم له الشاى فى طبق فنجانها كأنه طفل صغير ، فسره ذلك كثيرا ، لأنه فى الواقع لم يكن اكثر من طفل غرير ، واخذ يجفف عينيه من الدموع ، وقد اضاء محياه بابتسامة خاطرة !

فقال لى السيد بعد أن ظل يرقبهما لحظة :

ـ أوه !.. سوف يطيب له العيش هنا كثيرا ، إذا استطعنا ان نحتفظ به هنا يا ايلين .. فان صحبة طفلة فى سنه لن تلبث أن تنفث فيه روحا جديدة ، وسوف تساعده رغبته فى الاستزادة من الصحة والقوة ، على اكتسابهما سريعا ..

فقلت فى نفسى : أجل .. إذا استطعنا أن نحتفظ به هنا !

فبدات تربت على خصلات شعره ، وتقبل وجنته ، وتقدم له الشاى فى طبق فنجانها كأنه طفل صغير ..

.. فقد اكتنفتنى موجة من الريبة والتوجس الاليم ، من انه لم يكن ثمة فى ذلك غير امل ضئيل .. ورحت افكر كيف يمكن لهذا الغلام العليل الهزيل ان يعيش فى « مرتفعات ويذرنج » ؟ .. واية رفقه تلك التى ستجمع بينه وبين ابيه وهيرتون ، واية دروس تلك التى سوف يتلقاها عنهما ؟

ومن المؤلم ان شكوكنا سرعان ما تحققت ، بل باسرع مما كنت اتوقع .. كنت قد اخذت الصغيرين إلى الطابق العلوى ، بعد ان انتهيا من تناول الشاى ، وانتظرت بجانب لينتون حتى استغرق فى النوم ـ إذ لم يشا ان افارقه حتى ينام ـ ثم نزلت إلى الطابق الارضى حيث وقفت إلى جوار المائدة فى البهو اشعل شمعة لحجرة نوم مستر ادجار ، عندما قدمت خادمة من المطبخ لتقول لى إن جوزيف ، خادم مستر هيثكليف ، بالباب يطلب التحدث إلى السيد .. نفرت فى بدنى رعدة عنيفة ، وقلت :

ـ سوف اساله اولا عما يرغبه ، فانها ساعة غير ملائمة لإزعاج الناس ، وفى اللحظة التى يعودون فيها من رحلة طويلة .. ولست اظن السيد على استعداد لان يراه ..

وكان جوزيف قد عبر المطبخ ، بينما كنت انطق بهذا القول ، ودلف إلى البهو .. كان متسربلا فى رداء الاعياد والاحداد ، وقد اكتسى وجهه الهضيم سمة من المشاكسة والتظاهر بالتقوى .. وكان يمسك قبعته بيد ، وعصاه باليد الاخرى ، وقد راح ينظف حذاءه فى ممسحة الارجل ..

فقلت له ببرود :

ـ طاب مساؤك يا جوزيف .. اى امر اتى بك إلى هنا الليلة ؟

فاجاب وهو يزيحنى بيده جانبا فى ازدراء :

ـ إنه مستر لينتون الذى اريد ان اتحدث إليه ..

ـ ان مستر لينتون على وشك الذهاب إلى الفراش ، فاذا لم يكن ما تريد قوله له شيئا هاما ، فانى على يقين من انه غير مستعد لسماعه الآن ..

ثم تابعت كلامى قائلة :

ـ وخير لك ان تجلس ، وتعهد إلى برسالتك ..

فراح يجيل انظاره فى الأبواب المغلقة المتجاورة ، ثم قال :

ـ ايها حجرته ؟

فادركت انه مصر على رفض وساطتى ، وهكذا صعدت فى تذمر بالغ إلى المكتبة ، واعلنت للسيد مقدم ذلك الزائر الذى يحضر فى وقت غير ملائم للزيارة ، ناصحة له بان يرفض مقابلته ويستمهله إلى اليوم التالى .. ولكن قبل ان يتسع الوقت أمام مستر لينتون ليفوهنى فى اداء ذلك ، كان جوزيف قد صعد فى اعقابى ، واندفع إلى داخل الحجرة حيث وقف عند طرف المائدة القصى ، واضعا كلتا قبضتيه

فوق قمة عصاه ، ثم اندفع يقول بصوت جهورى ، كأنما كان يتوقع معارضة او رفضا لمطالبه :

ـ لقد أرسلنى هيثكليف لآخذ غلامه ، ولن أعود بدونه !

فأخذ ادجار لينتون إلى الصمت لحظة ، وقد خيمت على اساريره سحابة من الحزن البالغ .. إنه من جانبه خليق بأن يشفق على الغلام ويرثى لحاله ، فوق أنه ذكر آمال ايزابيلا ومخاوفها وتمنياتها المظلمة لولدها ، عند ما استودعته إياه وعهدت به إلى عنايته ورعايته ، فاستبد به حزن مرير لمجرد التفكير فى التخلى عنه ، وراح ينقب فى أعماق فكره وقلبه عن طريقة يتجنب بها الاستسلام لطلب هيثكليف .. ولكن التريحة لم تسعفه بأية خطة تستهدف هذه الغاية ، كما أنه لو كشف عن اية رغبة فى الاحتفاظ بالغلام ، فان ذلك سوف يزيد اباه تشبثا واستمساكا به .. ولم يبق امامه إلا أن يسلمه لأبيه .. ولكنه ، مهما يكن من أمر ، لن يرضى بإيقاظه من النوم فى هذه الساعة ..

وعندئذ قال فى هدوء :

ـ اخبر مستر هيثكليف ان ابنه سوف يأتى إلى « مرتفعات ويذرنج » غدا .. فانه فى فراشه الآن ، وفى حالة من الإعياء لا تسمح له بقطع هذه المسافة الطويلة .. ويمكنك ان تخبره

ايضا ان والدة لينتون كانت تود ان يبقى فى رعايتى ، إذ ان صحته الآن ضعيفة وتحتاج للمزيد من العناية ..

فصاح جوزيف وهو يدق الأرض بعصاه ، ويقول بلهجة آمره :

ـ كلا .. إن ذلك لا يعنى شيئا بالنسبة له .. فان هيثكليف لا يقيم وزنا للأم ، ولا لك !.. ولكنه سوف يسترد ابنه ، ولا بد لى من أخذه الآن !

فقال مستر لينتون فى حزم وصرامة :

ـ لن تأخذه الليلة .. والآن ، انزل حالا ، واذهب إلى سيدك فاعد على مسامعه ما قلته لك .. خذيه بانللى إلى تحت .. اذهب !

ثم أمسك بذراع العجوز الثائر ودفعه إلى خارج الحجرة ، وأغلق الباب دونه .. فصاح جوزيف وهو ينسحب فى بطء وتمهل :

ـ حسنا جدا .. سوف يحضر بنفسه غدا .. وعليك ان تطرده هو الآخر ، إذا جرؤت !

* * *

WWW.LIBRARYALEXENDRIA.COM

الفصل العشرون

رأى مستر لينتون ، تجنبا لخطر تنفيذ هذا الوعيد ، أن يكلفنى بأخذ الصبى إلى دار أبيه ، فى الصباح الباكر ، على مهر كاثرين الصغير ، ثم انصرف قائلا :

ـ ما دام أمر هذا الغلام قد خرج من يدنا الآن ، ولم يعد لنا سلطان على مصيره ومستقبله ، سواء أكان حسنا أم سيئا ، فانه يجب عليك الا تذكرى لابنتى كلمة واحدة عن المكان الذى ذهب إليه .. لانها لا يمكن ان تتصل به من الآن فصاعدا ، ومن الخير لها ان تظل جاهلة بوجوده فى مكان قريب ، لئلا يستبد بها القلق ، وتتوق إلى زيارة « المرتفعات » لرؤيته .. قولى لها فقط إن اباه قد بعث فى طلبه فجأة ، فاضطر إلى فراقنا ..

وقد أظهر لينتون الصغير تمنعا ونفورا من إيقاظه من فراشه فى الساعة الخامسة ، وأبدى دهشته البالغة عندما أخبرته بوجوب الاستعداد لرحلة جديدة .. ولكنى هونت عليه الأمر بأن قلت له إنه ذاهب لقضاء بعض الوقت مع أبيه ، مستر هيثكليف ، الذى اشتدت رغبته فى رؤيته بحيث لم يطق تأجيل هذه السعادة حتى يرتاح الغلام من رحلته الطويلة ..

فصاح الغلام فى حيرة غريبة ودهشة بالغة :

ـ ابى ؟.. ابى انا ؟.. إن امى لم تذكر لى قط أن لى أبا ! .. وأين يقيم هذا الأب ؟.. انى افضل البقاء مع خالى ..

ـ إنه يقيم على مسافة قريبة من « الجرانج » .. وراء هذه التلال تماما .. والمكان لا يبعد كثيرا عن هنا بحيث يمكنك ان تأتى سيرا على الاقدام عندما تستكمل صحتك وتستعيد قواك .. ثم انك يجب ان تسر للذهاب إلى دارك ورؤية ابيك .. وعليك أن تحاول ان تحبه ، كما كنت تحب امك ، وعندئذ سوف تجد منه كل حب وشغف بك ..

فسألنى لينتون :

ـ ولكن لماذا لم اسمع عنه من قبل ؟.. ولماذا لم تكن امى تعيش معه كسائر الناس ؟..

ـ كانت اعماله تستلزم بقاءه فى الشمال ، على حين كانت صحة والدتك تقتضى إقامتها فى الجنوب .

فعاد الغلام يسأل فى إلحاح :

ـ ولماذا لم تحدثنى امى عنه إذن ؟.. لقد كانت تحدثنى كثيرا عن خالى فتعلمت أن أحبه من زمن طويل .. فكيف يمكن أن أحب ابى ، وانا لا اعرفه ؟..

فقلت :

ـ أوه !.. ان الأطفال جميعا يحبون والديهم .. ولعل والدتك خشيت أن ترغب فى الذهاب إلى ابيك والإقامة معه إذا اكثرت من التحدث عنه امامك . ولكن لنسرع الآن ، فان الركوب مبكرا فى مثل هذا الصباح المشرق الجميل خير من النوم ساعة اخرى ..

ـ وهل هى ذاهبة معنا ؟.. تلك الفتاة الصغيرة التى رأيتها امس ..

الفصل العشرون

رأى مستر لينتون ، تجنبا لخطر تنفيذ هـذا الوعيد ، أن يكلفنى باخذ الصبى إلى دار ابيه ، فى الصباح الباكر ، على مهر كاترين الصغير ، ثم اضاف قائلا :

ـ ما دام امر هذا الغلام قد خرج من يدنا الآن ، ولم يعد لنا سلطان على مصيره ومستقبله ، سواء اكان حسنا أم سيئا ، فانه يجب عليك الا تذكرى لابنتى كلمة واحدة عن المكان الذى ذهب إليه .. لانها لا يمكن ان تتصل به من الآن فصاعدا ، ومن الخير لها ان تظل جاهلة بوجوده فى مكان قريب ، لئلا يستبد بها القلق ، وتتوق إلى زيارة « المرتفعات » لرؤيته .. قولى لها فقط إن اباه قد بعث فى طلبه فجأة ، فاضطر إلى فراقنا ..

وقد اظهر لينتون الصغير تمنعا ونفورا من إيقاظه من فراشه فى الساعة الخامسة ، وابدى دهشته البالغة عند ما اخبرته بوجوب الاستعداد لرحلة جديدة .. ولكنى هونت عليه الأمر بان قلت له إنه ذاهب لقضاء بعض الوقت مع أبيه ، مستر هيثكليف ، الذى اشتدت رغبته فى رؤيته بحيث لم يطق تأجيل هذه السعادة حتى يرتاح الغلام من رحلته الطويلة ..

فصاح الغلام فى حيرة غريبة ودهشة بالغة :

ـ ابى ؟.. ابى انا ؟.. إن امى لم تذكر لى قط ان لى ابا ! .. واين يقيم هذا الأب ؟.. اننى افضل البقاء مع خالى ..

ـ إنه يقيم على مسافة قريبة من « الجرانج » .. وراء هذه التلال تماما .. والمكان لا يبعد كثيرا عن هنا بحيث يمكنك ان تأتى سيرا على الأقدام عند ما تستكمل صحتك وتستعيد قواك .. ثم انك يجب ان تسر للذهاب إلى دارك ورؤية ابيك .. وعليك أن تحاول ان تحبه ، كما كنت تحب امك ، وعندئذ سوف تجد منه كل حب وشغف بك ..

فسألنى لينتون :

ـ ولكن لماذا لم اسمع عنه من قبل ؟.. ولماذا لم تكن امى تعيش معه كسائر الناس ؟..

ـ كانت اعماله تستلزم بقاءه فى الشمال ، على حين كانت صحة والدتك تقتضى إقامتها فى الجنوب .

فعاد الغلام يسأل فى إلحاح :

ـ ولماذا لم تحدثنى امى عنه إذن ؟.. لقد كانت تحدثنى كثيرا عن خالى فتعلمت ان احبه من زمن طويل .. فكيف يمكن أن احب ابى ، وانا لا اعرفه ؟..

فقلت :

ـ اوه !.. ان الأطفال جميعا يحبون والديهم .. ولعل والدتك خشيت ان ترغب فى الذهاب إلى ابيك والإقامة معه إذا اكثرت من التحدث عنه امامك . ولكن لنسرع الآن ، فان الركوب مبكرا فى مثل هذا الصباح المشرق الجميل خير من النوم ساعة اخرى ..

ـ وهل هى ذاهبة معنا ؟.. تلك الفتاة الصغيرة التى رأيتها امس ..

فأجبته : كلا .. إنها لن تذهب الآن ..

فأردف يسألنى : وهل يذهب خالى معنا ؟..

قلت : كلا .. سوف تذهب إلى هناك فى رفقتى ..

فعاد يستلقى فى فراشه ويدس رأسه فى الوسادة ، وقد استغرق فى التفكير وعلا القطوب أساريره ، وما لبث أن انخرط فى البكاء قائلا :

ـ اننى لن اذهب من غير خالى .. فما أدرانى إلى أين تريدين أن تأخذينى !

وحاولت إقناعه بأن إظهاره النفور من لقاء أبيه أمر غير كريم .. ومع ذلك ظل يقاوم ، فى عناد وإصرار ، محاولاتى تهيئته للخروج ، حتى اضطررت إلى الاستعانة بالسيد لملاطفته وملاينته حتى ينهض من الفراش .. وأخيرا قام الغلام المسكين ، بعد أن بذلنا له الوعود والتأكيدات ـ الزائفة طبعا ـ بأن غيابه لن يطول ، وان مستر ادجار وكاثى سوف يزورانه هناك ، وغير ذلك من الوعود « الزائفة » الأخرى التى كنت أخترعها وأرددها على مسامعه بين وقت وآخر أثناء الطريق .. وقد أثر فيه الهواء النقى المنعش المحمل بعبير الزهور البرية ، واشعة الشمس المشرقة ، والخبب الرقيق للمهر « ميني » ، بإشاعة الأمل والهدوء فى نفسه واحلالهما محل الاضطراب والقنوط .. فلم تمض لحظات على مسيرنا حتى بدأ يمطرنى بالأسئلة عن بيته الجديد ، وعن قاطنيه ، فى اهتمام وحيوية متزايدين .

فقد استدار ليلقى نظرة أخيرة على الوادى الخصيب الذى كان يتصاعد منه ضباب رقيق فيتجمع فى سحابة أشبه بالقطن المندوف عند حافة القبة الزرقاء ، وما لبث أن سألنى :

ـ هل « مرتفعات ويذرنج » مكان بهيج مثل « ثرشكروس جرانج » ؟ ..

فأجبته :

ـ إنه غير محاط بالأشجار الكثيفة مثله ، كما انه ليس فى سعته ونسحته .. غير انك ستطيع أن ترى جمال الريف حولك على مدى بعيد .. ثم إن الهواء هناك سوف يساعد على تقدم صحتك ، إذ هو أكثر جفافا وعذوبة .. ولعلك ، فى بادىء الأمر ، تجد المبنى عتيقا قاتما ، مع انه منزل محترم يعد ثانى اثنين هما افضل منازل هذه المنطقة .. وسوف تستمتع بجولات لطيفة بين الأحراش ، كما أن هيرتون ايرنشو ـ وهو ابن خال مس كاثى ، وبالتالى يعد قريبا لك ـ سوف يريك أجمل المواقع واروع المناظر .. وسيكون فى وسعك أن تحصل كتابا ، عند ما يكون الجو جميلا ملائما ، فتتخذ من العشب الأخضر ركنا للدرس والاستمتاع بالقراءة .. كما أن خالك قد يصحبك فى نزهة على الأقدام ، فانه كثيرا ما يخرج للمشى فوق التلال ..

ـ وما شكل أبى ؟.. أهو شاب كخالى ، وفى وسامته وظرفه ؟..

ـ إنه فى مثل سنه ، ولكنه أسود الشعر والعينين ، وأكثر منه عبوسا وصرامة .. وهو أطول قامة ، وأعظم هامة ..

ولعلك لا تجده ، فى بادىء الأمر ، رفيقا عطوفا ، لأنه ليس من طبعه ان يكشف عن عواطفه .. ولكن عليك أن تكون معه صريحا ودودا .. ومن الطبيعى أن يزداد حبا لك وولعا بك اكثر من اى عم او خال ، لانك ابنه ..

غمغم لينتون :

ـ اسود الشعر والعينين ؟.. اننى لا استطيع ان اتصوره .. وعلى ذلك فانى لا اشبهه ، اليس كذلك ؟..

ـ لا تشبهه كثيرا ..

ولكنى قلت فى نفسى وانا انظر إليه : « بل انك لا تشبهه البتة » .. بينما رحت اتأمل بشرته الناصعة البياض وجسده النحيل ، وعينيه الواسعتين الناعستين ، اللتين تشبهان عينى امه ، إلا انهما لا يشع منهما اى اثر لروحها الوثابة المتلألئة ، فيما عدا لحظات خاطفة تومضان فيها من اثر المرض الذى ينهكه ..

وتنبهت على صوته وهو يغمغم :

ـ اليس من العجيب انه لم يحضر قط لرؤية امى او رؤيتى ؟ .. فهل رآنى من قبل ؟ .. إن كان قد فعل ، فلا بد اننى كنت طفلا صغيرا ، لأننى لا اذكر اقل شىء عنه !

فأجبته :

ـ لا تنس يا سيد لينتون أن ثلاثمائة ميل مسافة عظيمة ، كما أن عشر سنوات تبدو مخيفة فى طولها فى نظر شخص

كبير عما هى فى نظرك انت .. ولعل مستر هيثكليف كان يعتزم الذهاب إليكما من صيف لآخر ، ولكنه لم يجد الفرصة المواتية قط ، حتى فات الاوان الآن .. وارجو الا تزعجه بالاسئلة فى هذا الامر ، فإن ذلك سوف يضايقه ، دون جدوى أو فائدة ..

وشغل الغلام بالاستغراق فى افكاره وتأملاته بقية رحلتنا ، حتى وقف بنا المهر امام بوابة الحديقة عند المنزل الريفى .. ورحت اراقبه خفية لأتبين فى اساريره المشاعر التى تختلج بها نفسه ، فرايته يتأمل الواجهة المنقوشة ، والنوافذ ذات الحواف المنخفضة ، وخمائل عنب الديب المتناثرة ، واشجار الحور المائلة على سوقها ، فى اهتمام بالغ رصين ، ثم يهز راسه ! .. كانت مشاعره الخاصة تفيض استهجانا للمنظر الخارجى لمقره الجديد ، ولكنه كان من اللباقة بحيث ارجأ تذمره وشكواه ، لعله يجد فى الداخل ما يعوضه عن هذا القبح الذى اثار اشمئزازه ..

وقبل أن يترجل عن مهره ، مضيت وفتحت الباب .. كانت الساعة وقتئذ قد بلغت السادسة والنصف ، وكانت الاسرة قد فرغت لتوها من تناول طعام الإفطار ، واخذت الخادم فى إزالة بقايا المائدة وتنظيفها .. وكان جوزيف يقف بجوار مقعد سيده ويتحدث إليه عن جواد اعرج ، على حين كان هيرتون يستعد للذهاب إلى حقل الدريس ..

فلما وقعت انظار مستر هيثكليف على ، هتف قائلا :

ـ اهلا بك يا نللى !.. لقد كنت اخشى ان اضطر للذهاب بنفسى إلى « الجرانج » لاخذ ما املكه .. ولكنى اراك احضرته إلى هنا ، اليس كذلك ؟.. دعينا نر ما يمكن ان نصنعه به !

ثم نهض من مجلسه ، ومشى إلى الباب بخطواته الواسعة، يتبعه جوزيف وهيرتون وقد تملكهما الفضول وحب الاستطلاع .. فأجال لينتون المسكين عينيه المرتاعتين فى الوجوه الثلاثة التى كانت تتطلع إليه ..

وبدأ جوزيف قائلا ، بعد أن تفحصه فى صرامة وإمعان :

ـ يقينا انه بادلك ايها السيد ، وارسل لك ابنه هو !

اما هيثكليف فقد ظل يحدج ابنه بنظرات مفترسة حتى اصابت الغلام نوبة من الاضطراب والارتباك ، وعندئذ اطلق ضحكة ساخرة عالية وهتف يقول :

ـ ما شاء الله ! .. ما أبهى هذا الجمال وما أروعه ! .. وما أحلاه من « شىء » ساحر فتان ! .. اترينهم كانوا يطعمونه القواقع واللبن الرائب يا نللى ؟ .. آه ! .. ليمحق الشيطان روحى ! .. ولكن ذلك اسوأ مما توقعت بكثير .. ويعلم الشيطان اننى لم اكن مغرقا فى الأمل والخيال !

فطلبت إلى الطفل الحائر المرتعد ان يترجل عن مهره ، وان يدخل البيت .. ولم يكن المنكود قد فهم تماما ما يعنيه حديث ابيه ، او هل كان هو المقصود به ام غيره .. والواقع انه لم يكن واثقا بعد ان ذلك الغريب المتجهم الذى يتيش لسانه بالسخرية اللاذعة هو ابوه .. ولكنه تعلق بى وقد ازدادت

رعدته وارتعاشه .. فلما جلس مستر هيثكليف وصاح به : « تعال هنا » اخفى وجهه فى ذراعى وانخرط فى البكاء ..

فمد هيثكليف يده وجذبه حتى اوقفه بين ركبتيه ، ثم امسك بذقنه ورفع راسه عاليا وهو يقول :

ـ صه .. صه !.. دعك من هذا الهراء .. إننا لن نؤذيك يا لينتون .. اليس هذا اسمك ؟ .. انك ابن امك بأكملك ! .. فاين نصيبى فيك ايها الكتكوت البكاء !

ونزع تلنسوة الغلام ، ودفع إلى الخلف غدائره الشقراء الكثيفة ، وراح يتحسس ذراعيه النحيلتين واصابعه الصغيرة .. وكف لينتون عن البكاء اثناء هذا الفحص الدقيق ، ورفع عينيه الواسعتين الزرقاوين يفحص بهما فاحصه !

وبعد ان اقتنع هيثكليف بأن اطراف الصبى كانت جميعا سواء فى الرخاوة والضعف ، سأله قائلا :

ـ هل تعرفنى ؟

فأجابه لينتون وفى عينيه نظرة خوف جوفاء : كلا ..

ـ لعلك سمعت عنى إذن ؟ ..

فأجابه ثانية : كلا ..

ـ أتقول كلا ؟ .. ما اقبح ذلك من امك !.. الم توقظ فيك قط مشاعر الاحترام نحو ابيك !.. دعنى اخبرك إذن انك ابنى .. وان امك كانت فاجرة شريرة إذ تركتك جاهلا حقيقة الأب الذى انجبك ! .. والآن لا ترع ولا تجفل منى ، ولا تدع

وجهك يحمر هكذا .. ولو أن ذلك يعد شيئا عظيما أن نرى ان الدماء التى تجرى فى عروقك ليست بيضاء هى الأخرى .. وكن صبيا طيبا ، أكن لك خير الآباء ..

ثم التفت نحوى قائلا :

ـ وأنت يا نللى .. إذا كنت متعبة فيمكنك أن تجلسى .. وإلا فعودى إلى بيتك ! .. واحسبك سوف تروين كل ما ترينه وتسمعينه هنا لصاحب « الجرانج » التافه الحقير .. كما أن هذا « الشىء » لن يستقر أو يهدأ ما دمت تحومين حوله ..

فأجبته :

ـ حسنا .. ولكنى أرجو أن تكون رفيقا بالصبى يا مستر هيثكليف ، وإلا فإنك لن تستطيع الإبقاء عليه طويلا .. واذكر انه كل ما لك من قرابة فى هذا العالم ، بل كل ما سوف يكون لك ..

فقال ضاحكا :

ـ لا تخشى عليه شيئا ، فسوف أكون رفيقا به غاية الرفق .. ولكن لا ينبغى لأحد غيرى أن يكون رفيقا به أو مشفقا عليه .. فإنى غيور على احتكار عواطفه لنفسى ! .. وسوف أبدأ الرفق به من الآن ! .. اذهب يا جوزيف واحضر طعاما لإفطاره .. وأنت يا هيرتون ، أيها العجل الشيطانى ، امض إلى عملك !

فلما خرج كل منهما لشأنه ، استطرد يقول :

ـ نعم يا نللى .. فإن ابنى هو المالك المرتقب لأملاككم .. ولست أود أن يموت قبل أن أكون واثقا من أننى وارثه !..

وفضلا عن ذلك فإنه ابنى ، وأريد أن أتمتع بلذة النصر عندما أرى عقبى يصبح المالك الوحيد لضياعهم وأملاكهم ، وعندما أرى ابنى يستخدم أبناءهم ليحرثوا أرض آبائهم وهم فيها أجراء يتلقون أجورهم من يده .. إن ذلك هو الاعتبار الوحيد الذى يجعلنى أطيق هذا الجرو .. إننى أحتقره لتفاهة شخصه ، وأمقته للذكريات البغيضة التى يثيرها فى نفسى .. ولكن هذا الاعتبار الذى ذكرته لك كاف كل الكفاية ، وهو معى فى أمان ، وسينال من الرعاية ما لا يقل عما يضفيه سيدك على ابنته .. لقد أعددت له حجرة فى الطابق العلوى ، وفرشتها بأثاث جميل .. كما عينت له مدرسا ، سوف يحضر ثلاث مرات كل أسبوع من مسافة عشرين ميلا ، ليعلمه كل ما ينبغى أن يتعلمه .. وقد أمرت هيرتون أن يطيع أمره .. والواقع أننى رتبت كل شىء بحيث يظل محتفظا بروح السيادة والسمو على كل من يعيش معه .. ولو أننى أشعر بالأسف العميق إذ وجدته لا يستحق كل هذا العناء .. وإذا كنت قد تمنيت شيئا من السعادة فى هذه الدنيا ، فهو أن أجد ابنى شيئا ذا قيمة خليقا بالإعجاب والتقدير والزهو .. وها أنذا أجد الخيبة المريرة والفشل الذريع مع هذا النمس الكالح الوجه الذى لا يكف عن الأنين والنواح !

وفيما كان يتحدث إلى ، عاد جوزيف يحمل طبقا من عصيدة اللبن ، وضعه أمام لينتون الذى ظل يتململ أمام الطعام التقليدى للمنزل ، وينظر إليه شزرا ، ثم يقول إنه لا يستطيع أن يأكله ! .. ورأيت الخادم الشيخ يشاطر سيده

عاد جوزيف يحمل طبقا من عصيدة اللبن ، وضعه أمام لينتون الذى ظل يتململ أمام الطعام التقليدى للمنزل ..

سخريته بالغلام على نطاق واسع ، ولو انه كان مرغما على الاحتفاظ بشعوره فى اعماق قلبه ، لان هيثكليف كان جادا فى ارغام اتباعه على احترام الغلام واعتباره سيدا ..

فحملق جوزيف فى وجه لينتون ، وقال وهو يخفض من صوته خشية ان تسمعه :

ـ لا تستطيع ان تاكله ؟ .. ولكن السيد هيرتون لم يكن ياكل شيئا سواه قط عندما كان صبيا صغيرا .. واظن ان ما يصلح له يصلح لك تماما مثله ..

فاجابه لينتون فى لهجة آمرة قاسية :

ـ إننى لن آكله .. خذه من هنا ..

فاختطف جوزيف الطبق فى حنق واحضره إلينا ، حيث دفع به تحت انف هيثكليف قائلا :

ـ هل فى هذا الطعام شىء يعيبه ؟ ..

ـ ما الذى يمكن ان يعيبه ؟ ..

ـ لست أدرى .. ولكن ذلك الصبى الرقيق الأنيق يقول إنه لا يستطيع ان ياكله !! .. واحسبه على حق ، فقد كانت امه مثله تماما لا تستطيب طعامنا !

فاجابه السيد غاضبا :

ـ إياك أن تذكر امه أمامى .. اذهب فاحضر له من الطعام ما يوافقه ويستطيع ان ياكله ، وهذا كل شىء .. ما هو طعامه المعتاد يا نللى ؟ ..

فاقترحت ان يأتوا له بلبن ساخن او قدح من الشاى ؛ وسرعان ما تلقت مدبرة المنزل التعليمات اللازمة لإعداد شىء من ذلك .. فسررت ، وقلت فى نفسى ان انانية ابيه سوف تساهم فى تهيئة وسائل الراحة له ، فإنه يرى تكوينه الضعيف وحاجته إلى ان يعامل فى رفق بالغ .. ولسوف ينعزى مستر ادجار عندما اخبره بالتحول الذى طرأ على خلق هيثكليف ..

وإذ لم يعد لى عذر فى التوانى والبقاء اكثر من ذلك ، فقد تسللت خارجة ، بينما كان لينتون مشغولا ، يرد فى حياء ملاطفات احد الكلاب .. ولكنه كان من اليقظ والانتباه بحيث لم يمكن خداعه .. فما كدت اغلق الباب ، حتى سمعته يصيح ويردد فى فزع هذه الكلمات :

ـ لا تتركينى ! .. لا أريد البقاء هنا ! .. لا أريد البقاء هنا ..

وعندئذ سمعت صرير المزلاج وهو يرتفع ويهبط ليوصد الباب ، وادركت انهم يحولون بينه وبين الخروج ، فاسرعت ابتطى ظهر المهر ، واستحثه على العدو .

وعلى هذا النحو انتهت مدة حراستى القصيرة لليتيم الصغير ..

* * *

الفصل الحادى والعشرون

كانت مهمتنا مع كاثى الصغيرة شاقة مؤلمة فى ذلك اليوم .. فقد استيقظت من النوم وهى تفيض مرحا وسرورا ، وتتلهف إلى لقاء ابن عمتها .. وما أن بلغتها انباء رحيله حتى راحت تذرف الدمع المرير ، وتنتحب فى نشيج اليم ، بحيث اضطر ادجار نفسه إلى تهدئتها بالتاكيد لها بأنه سوف يعود ثانية ، وإن كان قد احتاط فأردف قائلا : « ان استطعت إليه سبيلا » ، ولم يكن ثمة امل فى ذلك .. وقد افلح هذا الوعد فى تهدئة روعها قليلا ، ولكن الزمن كان اعظم قدرة وابعد اثرا .. فعلى الرغم من انها كانت لا تفتأ ، بين الحين والحين ، تسائل اباها عن موعد عودة لينتون ، فانها قبل ان يقدر لها ان تراه مرة ثانية ، كانت ملامحه قد اختلطت فى ذاكرتها وجللتها غلالة من النسيان ، بحيث لم تعرفه عندما رأته !

وكنت كلما قابلت مدبرة منزل « مرتفعات ويذرنج » عند زيارتى لقرية « جيمرتون » لقضاء مهمة فيها ، سألتها عن حال السيد الصغير وصحته ، إذ كان يعيش فى عزلة مثل كائرين نفسها ، فلا يراه أحد ولا يرى أحدا .. فكنت استشف منها انه ما يزال على ضعف صحته ، وانه رفيق كثير النكد والمشاكسة .. وقد ذكرت لى انه يبدو أن مستر هيثكليف يزداد له مع الايام كراهية ومقتا ، وإن كان يجهد فى إخفاء ذلك .. فقد كان شديد النفور من سماع صوته ، ولا يطيق جلوسه معه فى حجرة واحدة اكثر من بضع دقائق ، وقلما كانا يتبادلان

من الحديث اكثر من كلمات معدودات .. فقد كان لينتون يستذكر دروسه ويقضى امسياته فى حجرة صغيرة يطلقون عليها اسم « البهو » تجوزا ، او يمضى يومه كله راقدا فى فراشه إذ لم تكن تفارقه نوبات السعال او البرد او الأوجاع او الآلام من نوع ما .. واضافت المرأة قائلة :

ـ وما رأيت فى حياتى مخلوقا رعديدا خائر القلب ، او مفرطا فى الحرص على نفسه مثل هذا الصبى .. فإنه سوف يموت حتما إذا تركت النافذة مفتوحة قليلا عند حلول المساء .. وإذا مسته نسمة من نسمات الليل العليلة فإنها سلاح قاتل فتاك ! .. ولا بد من ان توقد له المدفأة فى اشد أيام الصيف حرا .. ودخان الطباق فى غليون جوزيف غاز سام سوف يقضى عليه ! .. وهو يصر على ان تكون لديه دواما انواع مختلفة من الحلوى والفطائر .. اما اللبن فلا ينقطع عنه .. اللبن دائما أبدا .. وهو فى ذلك لا يعبأ البتة بما يصيبنا من برد الشتاء القارس عندما يغتال نصيبنا منه .. وترينه دائما يجلس فى مقعده بجوار المدفأة ، ملتفا بمعطفه ذى الفراء ، وإلى جانبه بعض الفطائر وقدح من الماء او غيره من السوائل يضعه على رف المدفأة ليظل ساخنا فيرشف منه جرعة بعد اخرى .. وإذا اشفق عليه هيرتون وأتى ليسليه قليلا ـ وهيرتون طيب القلب ، وإن كان جافا خشنا ـ فإنهما سرعان ما يفترقان واحدهما يسب ويلعن والثانى ينشج بالبكاء والنحيب ! .. وفى يقينى ان السيد كان خليقا بأن يسر كثيرا لو ان هيرتون ظل يضربه حتى يحيله جثة هامدة ، لولا انه ابنه . وكذلك اعتقد انه خليق بأن

يطرده لو عرف نصف ما يضفيه الصبى على نفسه من رعاية وحيطة وتدليل ! .. ولكنه قلما يتعرض لخطر الإغراء بذلك ، فإنه لا يدخل « البهو » قط ، وإذا اظهر لينتون شيئا من هذه الأساليب فى حجرة الجلوس حيث يقعد ، فإنه يطرده من الحجرة ويأمره بالصعود إلى الطابق العلوى على الفور ..

وقد حدست من هذا الحديث ان حرمان هينكليف الصغير من العطف والحنان كلية قد جعله أنانيا سيىء الخلق حتى ولو لم يكن كذلك اصلا .. وهكذا تضاءل اهتمامى به ، ولو اننى شعرت بنوع من الأسى لمصيره ، ووددت لو انه ترك معنا .. وكان مستر ادجار يشجعنى على الحصول على المزيد من المعلومات عنه ، واحسب انه كان يفكر فيه كثيرا ، ولا يتأخر عن المجازفة فى سبيل رؤيته .. وقد طلب إلى مرة ان اسأل مدبرة المنزل إن كان يأتى إلى القرية احيانا ؟ .. فعلمت منها انه لم يذهب للقرية إلا مرتين ، راكبا جوادا ، وفى صحبة والده .. وفى كل من المرتين كان يدعى انه منهوك القوى ثلاثة أيام او اربعة بعدها ..

وقد تركت تلك المرأة خدمة المنزل ـ إذا صدقت ذاكرتى ـ بعد عامين من مجيئه ، وخلفتها اخرى لم اكن اعرفها ، ما تزال هناك حتى الآن ..

ومرت الأيام « بالجرانج » على نهجها السابق البهيج ، حتى بلغت مس كاثى السادسة عشرة من عمرها .. ولم نكن نحتفى بعيد ميلادها على الاطلاق ، لأنه كان يوافق ذكرى وفاة سيدتى الراحلة .. وكان والدها قد اتخذ لنفسه عادة

لا تتغير ، هى أن ينفرد بنفسه ذلك اليوم فى المكتبة ، ثم يسير عند الغسق إلى فناء كنيسة جيبرتون حيث يطيل زيارته لقبر زوجته حتى منتصف الليل .. وهكذا كانت كاثرين تترك لتحتفل بعيد ميلادها بنفسها ، وبوسائلها الخاصة ..

وفى العشرين من مارس من ذلك العام ، كان اليوم من أيام الربيع الجميلة المشرقة .. فما أن بدا والدها اعتكافه حتى نزلت سيدتى الصغيرة ترتدى ثياب الخروج ، قائلة إنها استأذنت أباها لتقوم بجولة عند أطراف البرارى والأحراش معى ، فأذن لها مستر لينتون بذلك ، بشرط أن نذهب إلى مسافة قريبة وأن نعود بعد ساعة ، واردفت كاثى صائحة :

ـ اسرعى إذن يا ايلين .. إننى اعرف أين أريد الذهاب .. حيث يقيم سرب من طيور الأحراش ، أود أن ارى إن كانت قد اقامت أعشاشها بعد ..

فأجبتها :

ـ لابد أن يكون ذلك على مسافة بعيدة وارتفاع عال .. فالطيور لا تعشش عند أطراف البرارى ..

ـ كلا .. إنها ليست مسافة بعيدة ، وقد ذهبت بالقرب منها مع أبى ..

فوضعت قلنسوتى واندفعت معها إلى الخارج ، دون أن أعير الأمر اهتماما أو افكر فيه مرة ثانية .. وكانت تقفز أمامى فتسبقنى ، ثم تعود إلى جانبى ، ثم تجرى أمامى من جديد كأنها كلب صيد صغير يرافق صاحبه .. ولقد تملكتنى

ـ فى بادىء الأمر ـ نشوة من الطرب عندما سمعت اصوات القنابر وهى تصدح من قرب ومن بعد ، واستمتعت بأشعة الشمس الدافئة اللذيذة ، وعندما رحت ارقب طفلتى المدللة وبهجتى الغالية ، بغدائرها الذهبية السابحة فى الهواء خلفها ، ووجنتيها المتوردتين المتالقتين ، كأنهما فى نعومتهما وصفائهما ونضارتهما وردتان بريتان متفتحتان ، وعينيها اللتين تشعان بهاء ومرحا ولا تظللهما سحب المتاعب والأحزان .. كانت فى تلك الأيام مخلوقة سعيدة ، وملاكا طاهرا .. وليتها استطاعت ، وقتئذ ، أن تقنع بما كانت فيه !

وما لبثت أن قلت :

ـ حسنا .. أين طيورك البرية يا مس كاثى ؟ .. كان ينبغى أن تكون عندها الآن ، فقد بعدنا عن بساتين « الجرانج » كثيرا ..

وكانت تجيبنى باستمرار :

ـ آه !.. إنها غير بعيدة من هنا .. هى على بعد قليل يا ايلين .. تسلقى تلك الرابية ، واعبرى ذلك الجسر ، وما أن تصلى إلى الجانب الآخر حتى تجدينى عند الطيور !

وكم من رابية تسلقتها وكم من جسر عبرته ، حتى بدأت أخيرا أحس بالتعب والإجهاد ، فقلت لها إننا يجب أن نتوقف ونعود أدراجنا .. وكانت قد سبقتنى بمسافة طويلة ، فطفقت اصيح منادية إياها ، ولكنها لم تسمعنى ، أو لم تكترث لندائى ، إذ ظلت تقفز هنا وهناك ، حتى اضطررت

إلى تعقبها .. واخيرا اختفت عن ناظرى داخل تجويف بين التلال ، وقبل أن أراها ثانية كانت اقرب إلى « مرتفعات ويذرنج » بميلين عنها إلى منزلها .. وتبينت شخصين يمسكان بها ، كان احدهما ـ فيما اعتقدت ـ مستر هيثكليف نفسه .. كانت كاثى قد ضبطت متلبسة بسرقة الطيور ، او على الأقل بالعبث فى اعشاشها ، فإن المرتفعات كانت ضمن املاك هيثكليف ، وكان من حقه أن يعاقب من يسطو عليها .. فلما بلغت مكانهم ، وانا أجر قدمى المكدودتين ، رايتها ترفع يديها مؤكدة ما تنطق به ، وهى تقول :

ـ إننى لم آخذ شيئا ، ولم اجد شيئا .. ولم يكن فى نيتى أن آخذها لو وجدتها .. ولكن ابى أخبرنى بوجود الكثير منها هنا فوق التلال ، فوددت أن أرى البيض ..

فرمقنى هيثكليف بانظاره وهو يبتسم ابتسامة شريرة تنم عن معرفته من تكون الفتاة ، وبالتالى عن نواياه الخبيثة نحوها ، ثم سأل عمن عساه يكون « ابوها » .. فاجابته :

ـ إنه مستر لينتون صاحب « ثرشكروس جرانج » .. وقد ادركت انك لم تعرفنى وإلا ما خاطبتنى بهذه اللهجة !

فقال فى سخرية :

ـ اتحسبين إذن أن أباك عالى القدر رفيع المكانة موفور الاحترام ؟ ..

فراحت كاثرين تحدق فيه بانظارها فى دهشة واستغراب ، قائلة :

ـ ومن تكون انت ؟.. ثم إننى رايت هذا الرجل من قبل ، فهل هو ابنك ؟ ..

واشارت إلى هيرتون ، الذى كان ثانى الاثنين ، والذى لم يكن قد اكتسب إلا زيادة فى الحجم والقوة فضلا عن عامين من عمره ، وإن كان يبدو على ما عهدته فيه من خشونة وجلافة ..

فاسرعت اقاطعها قائلة :

ـ سوف يطول غيابنا ثلاث ساعات ، يا مس كاثى ، لا ساعة واحدة .. ولا بد لنا حقا من العودة إلى المنزل الآن ..

فاجابها هيثكليف وهو يزيحنى جانبا :

ـ كلا .. إن هذا الرجل ليس ابنى .. ولكن لى ابنا رايته انت من قبل ايضا .. ومع أن مربيتك فى عجلة ، إلا اننى ارى من الخير لك ولها أن ترتاحا قليلا .. فهل لك ان تدورى حول هذه الدغلة ، وتسيرى إلى منزلى ؟.. إنكما إذا ارتحتما قليلا ستعودان إلى داركما فى وقت مبكر عما تفعلان لو سرتما الآن .. ثم إنك سوف تلقين منا كل ترحاب ..

فهمست إلى كاثرين انه لا ينبغى إطلاقا أن تلبى هذه الدعوة ، وان تثق فى كلامى بأن هذه الزيارة امر لا يمكن حدوثه ، فإذا بها تسائلنى بصوت عال :

ـ لماذا ؟ .. لقد تعبت من الجرى ، والعشب هنا ندى لا استطيع الجلوس فوقه ، فدعينا نذهب يا ايلين .. ثم إنه يقول إننى رايت ابنه .. ولكنى احسبه مخطئا فى ظنه .. وفى وسعى أن أحدس اين يقيم .. فى ذلك المنزل الريفى

الذى زرته اثناء عودتى من « صخور بنستون » ذلك اليوم .. الست تقيم هناك أ ..

فأجاب هيثكليف :

ـ بلى .. وانت يا نللى ، امسكى لسانك ، فإن زيارتها لنا سوف تكون مبعث سرور لها .. تقدم امامنا يا هيرتون مع الانسة ، اما انت يا نللى فسوف تسيرين معى ..

فصحت ، وقد اخذت احاول التملص من قبضته على ذراعى :

ـ كلا .. إنها لن تذهب إلى مثل هذا المكان !

ولكنها كانت وقتئذ توشك ان تصل إلى الدرج الخارجى للمنزل ، بعد أن راحت تركض باقصى سرعتها حول ادغال الاحراش .. ولكن المعين لرافقتها لم يستمر فى مهمته ، فقد اسرع بالابتعاد عند جانب الطريق واختفى عن الانظار ..

فاستطردت قائلة :

ـ إن ما تفعله يا مستر هيثكليف خطأ بالغ الخطورة .. فانت تعرف انك لا تضمر خيرا .. سوف ترى الفتاة لينتون ، وسوف تعود لتروى كل شىء لابيها بمجرد وصولنا ، وبذلك ينصب اللوم كله فوق راسى ..

ـ إننى اريدها على ان ترى لينتون ، فإنه يبدو احسن حالا هذه الايام ، وهو قلما يكون فى حالة تصلح لأن يراه أحد .. وسوف نقنعها الآن بأن تبقى امر هذه الزيارة فى طى الكتمان .. فأين الضرر فى ذلك أ ..

ـ الضرر فى ذلك هو أن والدها سوف يحنق على إذا تبين اننى سمحت لها بدخول منزلك .. كما اننى مقتنعة تماما بأن لك غرضا خبيثا فى تشجيعها على ذلك .

ـ بل إن غرضى شريف على قدر المستطاع ، وساخبرك بكل تفاصيله فى صراحة .. فانا اريد أن تتوثق الصلة بين ابن العمة وبنت الخال ، وان يتحابا ثم يربط الزواج بينهما .. وإنى فى ذلك اسدى يدا كريمة إلى سيدك نفسه .. فإن ابنته الصغيرة لا امل لها ولا مستقبل فى وراثته ، فإذا عملت بما يطابق رغباتى فإن ذلك يكسبها الحق فى مشاركة لينتون ميراث خاله .

ـ إذا مات لينتون ـ وهو امر قريب الاحتمال لان حياته غير مضمونة ـ فإن كاثرين ستكون الوارثة .

ـ كلا .. إنها لن تكون الوارثة .. فليس فى الوصية نص يضمن لها ذلك .. وإنما سوف تنتقل أملاكه إلى .. ولكى نضع حدا لهذا الجدل العقيم ، اقول لك إننى اريد أن يتزوجا وقد استقر عزمى على تنفيذ إرادتى ..

فقلت له حانقة :

ـ أما انا فقد استقر عزمى على الا تقرب كاثى منزلك معى مرة اخرى ..

فأمرنى بأن الزم الصمت ، إذ كنا قد وصلنا إلى البوابة حيث وقفت مس كاثى فى انتظارنا .. ثم سبقنا فى الممر ليفتح لنا باب المنزل .. وكانت سيدتى الصغيرة لا تفتأ ترمقه بالنظرة تلو النظرة ، كأنما لا تستطيع ان تستقر على راى قاطع فى حقيقة امره .. وكان كلما التقت عيناه بعينيها ،

ابتسم فى وجهها ، وكلما تحدث إليها رنق من سوته فى خطابها .. وقد بلغت بى البلاهة ان تصورت ان ذكرى امها قد تلين قلبه وتحول دون رغبته فى إيذائها ..

وكان لينتون يقف بجوار المدفأة ، وقد عاد من نزهته بين الحقول ، إذ كان لا يزال مرتديا قبعته وكان يطلب إلى جوزيف ان يأتيه بحذاء جاف .. وكان قد ازداد طولا بالنسبة لسنه ؛ فما زالت تنقصه بضعة أشهر ليبلغ السادسة عشرة .. أما ملامحه فقد احتفظت بجمالها ، وازدادت عيناه تألقا ، وبشرته توردا عما اذكره عنها .. ولو انه كان تألقا وتنيا اكتسبه من الهواء العليل والشمس الساطعة ..

وتحول مستر هيثكليف نحو كاثى ، سائلا :

ـ من هذا ؟ .. هل تعرفينه ؟ ..

فراحت تنقل انظارها بين الواحد والآخر فى تشكك ، قبل ان تجيب :

ـ اهو ابنك ؟ ..

ـ نعم .. نعم ولكن هل هذه اول مرة ترينه فيها ؟ .. فكرى قليلا .. آه !.. إن ذاكرتك ضعيفة خائرة .. وانت ، الا تذكر ابنة خالك التى اعتدت ان « تهوسنا » برغبتك فى رؤيتها يا لينتون ؟ ..

فما ان سمعت الاسم حتى اضطربت بالفرحة الطاغية والدهشة البالغة وصاحت قائلة :

ـ ماذا ؟ .. لينتون ؟ .. اهذا لينتون الصغير ؟ .. ولكنه يفوقنى طولا الآن ! .. هل انت لينتون حقا ؟ ..

فتقدم الفتى نحوها مؤكدا انه بعينه .. فراحت تقبله فى حرارة بينما كانا يتبادلان نظرات العجب مما احدثه الزمن من تغيير فى مظهر كل منهما .. كانت كاثرين قد بلغت غاية طولها ، وغدت ملفوفة العود فى غير بدانة ، رخصة البدن فى قوة فولاذية ، تشع بالصحة والحيوية الدافقة .. اما لينتون فكانت نظراته وحركاته واهنة ضعيفة ، وجسمه مفرط النحول ، ولكن كان فى مسلكه ومظهره رشاقة تلطف من هذه العيوب ، وتجعله يبدو مقبولا .

وبعد ان فرغت من تبادل آيات الود العديدة مع ابن عمتها ، مضت نحو مستر هيثكليف الذى كان يقف بجانب الباب ، مقسما انتباهه بين داخل البيت وخارجه ، متظاهرا بالنظر إلى الخارج وهو فى الحقيقة يرقب من فى الداخل فحسب .. فهمت على أطراف أصابعها لتقبله وهى تهتف قائلة :

ـ انك زوج عمتى إذن ؟.. والله لقد احببتك ، برغم عبوسك وتقطيبك فى بادىء الأمر ! .. ولكن لماذا لا تحضر لزيارة « الجرانج » مع لينتون ؟ .. اليس من العجيب ان نكون جيرانا متلاصقين كل هذه السنين ثم لا تزورنا قط ؟ .. لماذا بالله فعلت ذلك ؟ ..

فأجاب :

ـ لقد زرت « الجرانج » مرة او مرتين ، اكثر مما ينبغى ، قبل مولدك .. ولكن رويدك .. يا للمنة ! .. إذا كان لديك الكثير من القبلات ، فوفرها وامنحيها للينتون .. فلا تك تضيعينها عبثا فوق وجهى !

وتركته كاثرين ، وطارت إلى لتهاجمنى بقبلاتها المسرفة وهى تصيح :

ـ وانت يا ايلين .. ايتها الخبيثة الشريرة ! .. كم جاهدت فى منعى من الدخول ! .. ولكنى سوف اسير إلى هنا كل صباح فى المستقبل .. هل تسمح لى بذلك يا عماه ؟ .. وهل احضر ابى معى احيانا ؟ .. هلا يسرك ان نرانا ؟ ..

فأجاب « العم » وهو لا يكاد يستطيع إخفاء التطوب الذى علا وجهه ، والناتج من نفوره من كلا الزائرين :

ـ آه .. طبعا .. طبعا ..

وما لبث أن واجه السيدة الشابة ، مستطردا :

ـ ولكن مهلا .. لقد فكرت فى الامر ، ووجدت من الخير ان اخبرك بالحقيقة .. فإن مستر لينتون ناقم على ، إذ تشاجرنا مرة فى حياتنا ، فى ضراوة وقسوة .. ولو ذكرت له شيئا عن قدومك إلى هنا فسوف يعترض بشدة على زيارتك لنا .. ولذلك أرى انه لا يجب ان تخبريه بهذه الزيارة ، إلا إذا كنت قليلة الحرص على رؤية ابن عمتك فى المستقبل .. إن لك أن تحضرى كلما شئت ، ولكن لا تذكرى له ذلك ..

فسألته فى استخذاء : ولماذا تشاجرتما ؟ ..

ـ كان يرى اننى من الفقر بحيث لا اصلح زوجا كفؤا لأخته .. ثم حزن لفوزى بها ، واعتبر ذلك إهانة لكبريائه ، لا يمكن ان يغفرها لى البتة ..

فقالت الفتاة :

ـ هذا خطأ منه ، وسوف اخبره بذلك يوما من الايام .. ولكنى ولينتون لا شأن لنا ولا دخل بمنازعاتكما .. وما دمت لن احضر إلى هنا ثانية ، فعليه أن يأتى إلى « الجرانج » ..

فغمغم ابن عمتها :

ـ ان المسافة بعيدة لا استطيع سيرها .. وسوف يتطلب المشى اربعة اميال حتما .. كلا .. تعالى انت إلى هنا يا مس كاثرين ، بين آن وآخر .. لا كل صباح كما قلت ، بل مرة او اثنتين كل اسبوع !

فصوب هيثكليف نحو ابنه نظرة تفيض بالمرارة والازدراء ، وهمس يقول لى :

ـ اغلب ظنى ، يا ايلين ، ان جهودى سوف تذهب هباء .. فإن « مس كاثرين » ، كما يدعوها هذا الغلام التافه ، سوف تفطن سريعا إلى حقيقة تيمته ، فتطرحه وراء ظهرها ، أو تبعث به إلى الشيطان ! .. آه لو كان هيرتون محله ! .. اتعلمين اننى كثيرا ما اشتهيت لو كان هيرتون ابنى برغم ما هو فيه من ضعة الآن .. لقد كنت خليقا بأن احب الفتى لو لم يكن ابن هندلى ! .. ولكنى احسبه بمنجاة من حبها ! .. وسوف ادفع به لمنافسة هذا المخلوق الحقير ، إلا إذا نفض هذا عن نفسه خموله .. والواقع اننا لا نقدر انه سوف يعيش حتى يبلغ الثامنة عشرة .. آه .. لعنة الله على هذا المخلوق التافه الهزيل !.. إنه منهمك فى تجفيف قدميه ، ولا يلقى إليها بالا او اهتماما ! .. لينتون !

فاجاب الصبى : نعم يا أبتاه ..

ـ اليس لديك ما تصحب ابنة خالك لرؤيته خارج الدار ؟ .. ولو بعض الأرانب او أعشاش ابن عرس ؟ ! .. خذها يا بنى إلى الحديقة ، قبل ان تستبدل حذاءك ، واصحبها إلى الاسطبل لتريها جوادك ..

فتبتم لينتون مخاطبا كاثى فى نبرات تنم عن نفوره من التحرك من مكانه :

ـ الا تفضلين الجلوس هنا ؟ ..

فتطلعت الفتاة نحو الباب فى نظرات متشوقة ، وبدا عليها الظهف إلى الحركة والنشاط ، ثم اجابت فى استحياء :

ـ لست ادرى حقا !

وظل قابعا فى مقعده لا يفارقه ، بل لقد ازداد انكماشا والتصاقا بالمدفأة .. وعندئذ نهض هيثكليف ومضى إلى المطبخ فاجتازه إلى الفناء ، وسمعناه ينادى هيرتون ، وسمعنا هيرتون يلبى النداء ، وما لبث الاثنان ان دخلا إلى الحجرة .. وكان الشاب يغتسل كما بدا فى توهج وجنتيه وشعره الندى ..

فلما رآته مس كاثى ذكرت ما سمعته من مديرة المنزل ذات يوم ، فصاحت قائلة :

ـ آه ! .. دعنى اوجه إليك سؤالا يا عماه .. اهذا ابن خالى حقا ؟ ..

ـ نعم .. إنه ابن خالك .. افلا تحبينه ؟ ..

فبدت الحيرة فى أسارير كاثرين ، فاستطرد قائلا :

ـ الا تجدينه شابا لطيفا ؟ ..

فوقفت الفتاة الشقية على اطراف أصابعها وهمست فى اذن هيثكليف بكلمات انطلق على اثرها متهقها .. فاربد وجه هيرتون وبان عليه الحرج ، فادركت انه شديد الحساسية لكل ما ينم عن الاستهانة بأمره ، وان لديه فكرة مبهمة عن ضآلة شأنه بالنسبة لهم .. ولكن سيده ، او حاميه ، يسدد عبوسته بأن قال موضحا :

ـ سوف تكون المفضل لديها بيننا يا هيرتون ، فهى تقول إنك .. ترى ماذا قالت ؟ .. حسنا .. إنه تيه شديد الاطراء لك .. فاذهب معها ، وطف بها انحاء المزرعة ، واسلك سبيل السيد المهذب ، فلا تنطق امامها بكلمات غير لائقة ، ولا تحملق فى وجه الآنسة عندما تكون غير منتبهة إليك ، واغضض من بصرك عندما تنظر إليك .. وإذا تحدثت إليها فانطق بكلماتك فى بطء ووضوح ، ولا تضع يديك فى جيوبك .. هيا .. اذهب معها الآن ، وكن معها مضيفا رقيقا على قدر ما تستطيع من لطف ورقة !

ثم أخذ يرقبهما وهما يمران امام النافذة ، فإذا هيرتون ايرنشو قد اشاح بوجهه تماما عن رفيقته ، وقد بدا كأنما يدرس المناظر الممتدة امامه ، والمألوفة لديه ، فى اهتمام شخص غريب يراها للمرة الأولى ، أو استغراق فنان يرى فيها ما يشوقه ..

وراحت كاثرين ترمقه من طرف خفى ، فى نظرات تنم عن الإعجاب به إلى حد ما ، ثم ما لبثت ان انصرفت عنه إلى البحث عن الأشياء التى تثير فضولها وتسليتها ، وهى تتواثب من مكان لآخر ، وتترنم ببعض الألحان تعويضا لها عما يعوزها من حديث بسبب صمت رفيقها ..

ومضى هيثكليف يقول لى :

ـ لقد ربطت لسانه ، فلا يجرؤ على النطق بكلمة واحدة .. هل تذكرينني يا نللى عندما كنت فى مثل سنه .. لا ، بل اصغر منه ببضع سنين ؟ .. وهل ظهرت قط بمثل هذا الغباء ، أو هذا « التنطع » كما يسميه جوزيف ؟ ..

ـ بل اسوأ منه .. لأنك كنت اكثر تجهما وعبوسا !

فتابع كلامه ، كأنما يحدث نفسه ، أو ينطق بما يجول بخاطره :

ـ إننى أجد فيه ما يسرنى ويشفى غليلى ، ويرضى كل ما علقته عليه من آمال ! .. ولو انه ولد ابله او معتوها لما شعرت بنصف ما استمتع به الآن من سرور ورضى .. ولكنه ليس معتوها .. وفى وسعى ان أرثى لكل ما يخالجه من مشاعر واحاسيس ، لأننى انا نفسى عانيتها يوما من الأيام .. وانى أعلم كل ما يكابده الآن تماما .. ولكنها ، مع ذلك ، مجرد بداية لما سوف يكابده ويعانيه فيما بعد .. ولن يكون فى قدرته قط ان ينتشل نفسه من اعماق الجهالة والجلافة التى تردى فيها .. فقد استطعت ان اظفر به بأسرع مما

وراحت كاثرين ترمقه من طرف خفى ، فى نظرات تنم عن الاعجاب به الى حد ما ، ثم ما لبثت أن انصرفت عنه ..

ظفر بى والده الوغد ، وان ارمى به إلى احط مما رمانى .. فانه يتيه فخرا بجلافته وفظاظته .. وقد علمته كيف يسخر ويزدرى كل ما ليس حيوانيا ، وان يعده سخفا وضعفا .. افلا تظنين ان هندلى كان يمكن ان يفخر كثيرا بابنه ، لو اتيح له ان يراه الآن ؟ .. الا يفخر بابنه مثلما افخر انا بابنى هـذا ؟ .. ولكن هناك فرقا شاسعا بينهما .. فاحدهما ذهب خالص ولكنه يستخدم كبعض حجارة الطريق .. والثانى مـعـدن رخيص ولكنه يصقل ليحاكى آنية من الفضة ! .. ان ابنى خلو من اى شىء ذى قيمة ، ومع ذلك فانني استحق الثناء إذ اجعله يمضى إلى ابعد ما يمكن لشىء تافه مثله ان يبلغه .. اما ابنه هو فان له ميزات وصفات من الطراز الأول ، ولكنها ضائعة .. وقد قبرت وطمرت فى التراب حتى غدت اسوأ من عدمها .. فانا ليس لدى ما آسف عليه .. اما هو فانه خليق بان يكون اشد اسفا واسى من اى إنسـان عرفته .. واحسن ما فى الأمر ان هيرتون مولع بى ولعا شديدا .. ولعلك تعترفين بانني فى ذلك قد بززت هندلى وتفوقت عليه .. فلو ان الوغد الميت استطاع ان يقوم من قبره ويأتى ليناقشنى الحساب على ما فعلته بولده ، لاظج صدرى برؤية ذلك الولد نفسه يهاجمه حتى يرده إلى قبره ، وقد احنقه انه جرؤ على الاعتداء على الصديق الأوحد الذى له فى هذه الدنيا !

واطلق هيثكليف ضحكة شيطانية إعجابا بهذه الفكرة ! .. ولم احر جوابا ، لاننى رايت انه لم يكن ينتظر الجواب .. وفى الوقت نفسـه كان رفيقنا الصغير ـ الذى كان يجلس بعيدا عنا بحيث لم يسـمع ما قاله ابوه ـ قد بدأ يتململ فى مقعـده ويظهر علامات القلق .. ولعـل ذلك كان ندما منـه إذ حرم نفسه من متعة اصطحاب كاثرين خشية ان ينـاله بعض التعب .. ولاحظ ابوه نظراته القلقة الهائمة من خلال النافذة ، ويده المترددة وهى تمتد نحو قبعته وترتد عنهـا ، فصاح به فى حرارة مصطنعة :

ـ قم ايها الولد الكسول ، والحق بهما .. إنهما الآن عند ركن المنزل ، بجوار خلايا النحل !

فاستجمع لينتون همته الخائرة ، وغادر مكانه بجوار المدفأة .. وكان الباب مفتوحا ، وفيما كان يجتازه إلى الخـارج سمعت صوت كاثرين تسـأل رفيقها المستوحش عن تلك الكتابة المنقوشة فوق الباب .. فراح هيرتون يحملق بانظاره إلى النقوش ، وهو يحك رأسه فى بلاهة تفوق بلاهة مهرجى الملاعب .. وما لبث ان اجاب :

ـ إنها كتابة لعينة ، ولا استطيع قراءتها !

فصاحت كاثرين :

ـ لا تستطيع أن تقراها ؟.. إننى اقرؤها بسهولة ، فإنها كتابة إنجليزية .. ولكنى اريد أن اعرف سبب وجودها فوق الباب .

وعندئذ قهقه لينتون طربا ، وكان ذلك أول مظهر يبديه من مظاهر السرور والانشراح ، ثم قال لابنة خاله :

ـ إنه لا يعرف الحروف الأبجدية !.. فهل يمكنك ان تصدقى وجود مثل هذا الجهل الفاحش ؟ ..

فسألته مس كاثى فى جد واهتمام :

ـ هل هو شخص طبيعى مكتمل العقل كما ينبغى ان يكون ؟ .. ام انه غر ساذج به شذوذ ؟ .. لقد القيت عليه سؤالين منذ قليل فكان يبدو فى كل مرة من الغباء بحيث حسبته لا يفهمنى .. أما انا فانى لا استطيع فهمه حقا !

فانبعث لينتون يضحك من جديد ، وهو يرمق هيرتون بنظرات الشماتة والتشفى ، وكان من المؤكد أن الفتى فى تلك اللحظة لم يكن يبدو مجردا من ملكة الفهم ..

ومضى لينتون يقول :

ـ ليس به من شىء سوى البلادة والكسل ، اليس كذلك يا ايرنشو ؟ .. ان ابنة الخال تحسبك ابله او غبيا ، وهكذا

تلقى عواقب سخريتك بما تسميه : « تعليم الكتب » .. ثم هل لاحظت يا كثرين طريقة نطقه المروعة ، على غرار العوام من أهل يوركشاير ؟ ..

فزمجر هيرتون قائلا ، وهو أسرع بديهة فى إجابة رفيقه الدائم :

ـ وما الفائدة منها بحق الشيطان ؟ ..

وكان يهم بالمضى فى زمجرته شأوا بعيدا ، لولا ان الشابين اصابتهما نوبة من المرح الصاخب ، فانفجرا فى قهقهة متواصلة ، وقد طربت آنستى الطائشة إذ تبينت انها تستطيع أن تجعل من لهجته الغريبة الريفية موضعا للمرح والتسلية .

وقال لينتون وهو يضحك ضحكة ناعمة خبيثة :

ـ وما فائدة « الشيطان » فى هذه العبارة ؟ .. لقد امرك ابى بألا تفوه بأية كلمات غير لائقة ، وها انت لا تستطيع ان تفتح فمك دون أن تلوك واحدة منها ! .. هيا .. حاول ان تسلك مسلك السادة المهذبين ..

فصاح الشاب الريفى حانقا :

ـ لو لم تكن أقرب إلى الفتاة منك إلى الفتى لقضيت عليك فى الحال ، أيها المخلوق التافه الهزيل !

ثم أسرع بالابتعاد عنهما وقد اشتعل وجهه بنيران الغضب والمذلة معا ، فقد كان يشعر بعمق الإهانة التى أصابته ، وبعجزه عن الأخذ بثاره ..

وكان مستر هيثكليف قد سمع هذا الحوار ، كما سمعته ، فابتسم مغتبطا إذ رآه ينصرف عنهما ، ولكنه اعقب ذلك بنظرة غريبة تفيض بالنفور والكراهية ، حدج بها ابنه ورفيقته الثرثارين ، اللذين مضيا فى حديثهما عند مدخل البيت ، وقد وجد الفتى ما ينعشه ويثير حيويته فى الحديث عن أخطاء هيرتون ونقائصه ، ورواية الأقاصيص عن تصرفاته ، كما استطابت الفتاة أقواله البذيئة الحقود دون أن تنتبه إلى ما تنم عليه من سوء الطوية .. وعندئذ بدأت اكره لينتون ، أكثر مما كنت ارثى له ، وعذرت أباه فى احتقاره واستصغار شأنه ..

ومكثنا هناك حتى العصر ، إذ لم يمكنى أن انتزع مس كاثى قبل ذلك .. ولكن من حسن الحظ أن سيدى لم يكن قد غادر حجرته ، فظل جاهلا غيبتنا الطويلة .. وكنت اطيف على اطلاع الآنسة الشابة على حقيقة أخلاق الناس الذين غادرنا بيتهم ، ولكنها كانت قد وضعت فى رأسها أننى متحاملة عليهم ، فصاحت قائلة :

ـ آه ! .. انك تنحازين إلى جانب ابى يا ايلين .. ولقد

تبينت الآن مقدار تحيزك ، وإلا لما خدعتنى كل هذه السنين بزعمك لى أن لينتون يقيم فى مكان بعيد جدا .. إننى شديدة الغضب منك حقا ، غير أن سرورى اليوم يطغى على غضبى فيحول دون انفجاره ! .. ولكن عليك أن تمسكى لسانك عن زوج عمتى ! .. إنه عمى ! .. فاذكرى ذلك جيدا وحذار أن تنسيه ! .. أما أبى فسوف أعاتبه على شجاره معه !

وانطلقت فى الحديث على هذه النغمة حتى اضطررت إلى التخلى عن كل محاولة لإقناعها بخطئها .. ولم تذكر شيئا عن الزيارة فى تلك الليلة ، لا لشىء إلا لأنها لم تر مستر لينتون .. ولكن فى اليوم التالى افتضح السر كله ، لفرط كربى وغمى !

ومع ذلك فرب ضارة نافعة ! .. فلم يكن الأمر من السوء كما تصورت .. إذ فكرت فى أن مستر لينتون اقدر منى على حمل مسئولية التوجيه والتحذير ، واقوى منى تأثيرا عليها .. غير أنه كان كثير التردد والتهيب فى إقناعها بالأسباب القوية التى تبرر رغبته فى قطع كل صلة لها بأهل « مرتفعات ويذرنج » ، كما كانت كاثرين لا تقنعها سوى المبررات القوية لكل قيد يفرض على حريتها او يحد من رغباتها المدللة !

فما كادت تحييه تحية الصباح ، فى اليوم التالى ، حتى هتفت قائلة :

ـ هل بوسعك ، يا ابنتاه ، أن تحدس من رأيت بالأمس فى نزهتى بين الأحراش ؟ .. آه !.. اراك جفلت يا ابى ! .. وقد خانك الحذر الآن ، اليس كذلك ؟ .. حسنا ، لقد رأيت .. ولكن اصغ إلى وسوف تسمع منى كيف كشفت امرك ، وامر ايلين ـ حليفتك ـ التى كانت ، مع ذلك ، تتظاهر بالاشفاق على ، عندما كنت اعلل النفس بالأمل ويستبد بى القلق نحو عودة لينتون إلينا ثانية !

ثم مضت تروى القصة الأمينة الكاملة لرحلتها وما انتهت إليه .. أما السيد ، فعلى الرغم من انه كان يرمقنى بنظرات التانيب اكثر من مرة ، إلا انه لم يقل شيئا حتى فرغت من قصتها ، وعندئذ جذبها إليه وسألها إن كانت تعرف لماذا اخفى عنها وجود لينتون فى جوارنا القريب ؟.. وإن كانت تظن ذلك لمجرد انه يأبى عليها متعة بريئة لا ضرر ولا حرج من استمتاعها بها ؟ .. فاجابته :

ـ لقد كان ذلك لأنك تكره مستر هيثكليف ..

ـ إذن فأنت تعتقدين اننى من الأنانية بحيث اهتم بمشاعرى اكثر من اهتمامى بمشاعرك يا كاثى ؟ .. كلا .. لم يكن ذلك لأننى اكره مستر هيثكليف .. بل لأن مستر هيثكليف هو الذى يكرهنى ، ولأنه اقرب الناس إلى الابالسة والشياطين ، يجد لذته فى الإساءة إلى من يبغضهم وتدميرهم

تدميرا عند اول فرصة يتيحونها له .. وكنت اعرف انه ما من سبيل أمامك إلى توثيق عرى الود مع ابن عمتك دون أن تتصلى به وتلتقيه .. وكنت اعرف كذلك انه سوف يبغضك لانك ابنتى .. وهكذا اتخذت وسائل الحيطة حتى لا ترى لينتون ثانية ، لمصلحتك انت ، لا لأى سبب آخر .. وكان فى نيتى ان اشرح الأمر كله يوما من الأيام عندما تكبرين ، ويؤسفنى اننى توانيت فى ذلك ..

فقالت كاثرين ، وهى لا تبدو مقتنعة تماما :

ـ ولكن مستر هيثكليف كان ودودا فى ترحيبه بى يا ابتاه ! .. ولم يبد أى اعتراض على لقاء احدنا بالآخر او رؤيته له .. بل قال إن بوسعى الحضور إلى منزله كلما طاب لى ، على الا اخبرك بذلك ، لانك كنت قد تشاجرت معه ، ولن تغفر له زواجه من عمتى ايزابيلا .. أما انت فلا تسمح لى بذلك .. فانت وحدك الملوم الآن يا ابى !.. إنه ، على الأقل ، راض عن توطيد صداقتنا ، انا ولينتون .. أما انت فتقف فى سبيلها !

وإذ راى السيد انها لا تريد ان تصدق ما يتصف به زوج عمتها من خلق شرير ، راح يروى لها فى إيجاز مسلكه مع ايزابيلا ، ووسائل الغدر التى تملك بها « مرتفعات ويذرنج » ! ولم يكن يطيق المضى فى هذا الحديث طويلا ، لأنه على الرغم

من قلة ما ذكره عنه ، إلا انه كان يحس نحو عدوه القديم بذلك الروع نفسه وتلك البغضاء ذاتها اللذين كانا يملآن قلبه منذ وفاة مسز لينتون .. كان لا يفتأ يردد فى فكره تلك العبارة المريرة : « كان يمكن أن تظل على قيد الحياة حتى الآن ، لولا ما فعله بها » فكان هيثكليف يبدو فى عينيه قاتلا سفاكا .. ولكن مس كاثى ـ التى لم تعرف من أنواع الشرور سوى افاعيلها الصغيرة التافهة ، من العصيان او العسف او الانفعال ، الناجمة عن طبعها الحامى ، ومليشها الصبيانى ، والتى كانت تندم عليها يوم حدوثها ـ ذهلت واستبدت بها الدهشة من هذا « القلب الاسود » الذى يستطيع أن يجتر الحقد والضغينة ، وينطوى على نية الانتقام كل هذه السنين ، ويتابع تدبير الخطط فى صبر وعزم دون أن يلم به شبح من تأنيب الضمير ! .. وبدت من التأثر والضيق بهذا المظهر الجديد من مظاهر الطبيعة البشرية ـ وهو شىء لم يسبق لها أن قرأت عنه فى دراساتها ، أو خطر ببالها حتى الآن ـ بحيث فضل مستر ادجار أن يكف عن متابعة الكلام فى هذا الموضوع ، فاكتفى بأن ينهى الحديث بقوله :

ـ سوف تعرفين فيما بعد ، يا عزيزتى ، لماذا اود أن تتجنبى منزل هذا الرجل وعائلته .. أما الآن ، فعودى إلى مشاغلك وملاهيك السابقة ، ولا تفكرى فيهم بعد ذلك قط ..

فقبلت كاثرين اباها ، وعكفت على دروسها فى هدوء زهاء ساعتين كعادتها ، ثم صحبته فى جولة بين الحقول .. ومضى اليوم كله كما تمضى سائر الايام .. غير اننى عندما اوت إلى حجرتها فى المساء ، ولحقت بها لاساعدها فى إبدال ثيابها ، وجدتها راكعة بجوار الفراش وقد انخرطت فى البكاء ..

فتعجبت من ذلك ، وهتفت بها قائلة :

ـ واها لك من طفلة بلهاء ! .. لو انك ذقت شيئا من الاحزان الحقيقية ، لخجلت من إراقة دمعة واحدة سدى لمثل هذه المعارضة التافهة لرغباتك ! .. فاحمدى الله ، يا مس كاثرين ، على ان حياتك خلو من اى حزن جوهرى ، او ظل لمثل هذا الحزن .. وفكرى لحظة لو ان السيد ، وانا ، قضينا نحبنا ، ووجدت نفسك وحيدة فى هذا العالم ، فكيف يكون شعورك عندئذ ؟ .. قارنى بين ظروفك الحالية ومثل هذا المصاب الجلل ، واحمدى الله على ما اولاك من أصدقاء يحبون لك الخير ويسهرون على سعادتك ، بدلا من إراقة عبراتك فى اشتهاء المزيد من الأصدقاء !

فأجابت :

ـ إننى لا ابكى من أجل نفسى يا ايلين ، وإنما من اجله هو

www.liilas.com ARABIC

.. لقد كان يتوقع أن يرانى ثانية غدا ، ولكنه سوف يصاب بخيبة أمل شديدة .. وسوف يطول انتظاره عبثا ..

ـ هراء ! .. فهل تحسبينه يفكر فيك بمثل تفكيرك فيه ؟ .. اليس لديه رفيق هو هيرتون ؟ .. انك لا تجدين واحدا فى المائة من الناس يبكى فقد قريب له لم يره اكثر من مرتين فى امسيتين متباعدتين ! .. وسوف يدرك لينتون حقيقة الأمر ولا يشغل نفسه بالتفكير فيك بعد ذلك ..

فاستوت قائمة ، وهى تقول :

ـ ولكن هل لى ان اكتب إليه رقعة صغيرة أبين له فيها السبب فى عدم حضورى ، وارسل له معها هذه الكتب التى وعدته بإعارتها له ؟.. إن كتبه ليست فى مثل طرافة كتبى ، وكان يتلهف على الحصول عليها عندما حدثته عن جمالها وما فيها من بهجة وتسلية .. هل يمكننى ان اكتب إليه يا ايلين ؟ ..

فأجبتها فى حزم :

ـ محال ان يحدث ذلك .. ولن يحدث قط .. تكتبين إليه ، فيكتب إليك ، ثم لا يقف الأمر بعد ذلك عند حد ؟ .. كلا يامس كاثرين .. ان هذه الصلة يجب ان تقطع نهائيا ، فهكذا يتوقع ابوك منك ، وسوف اعمل على تنفيذ مشيئته ..

فبدأت تلح من جديد ، وقد اكتست اساريرها بطابع التوسل والرجاء :

ـ ولكن يمكن لرسالة صغيرة واحدة ان ..

غير انى قاطعتها فى صرامة :

ـ صه !.. إننا لن نعود إلى الحديث عن رسائلك الصغيرة .. هيا إلى الفراش !

عندئذ رمقتنى بنظرة تقطر سما ، حتى لقد بلغ من اثرها فى نفسى اننى لم اقبل فى بادىء الأمر على تقبيلها كعادتى كل مساء ، واكتفيت بإحكام الغطاء فوقها ، ثم اغلقت عليها الباب وقد ركبنى هم عظيم .. ولكنى ترددت فى منتصف الطريق ، وندمت على مسلكى ، فعدت إليها فى هدوء .. ويا للمفاجأة ! .. كانت الآنسة تقف بجوار المنضدة وامامها قطعة من الورق الأبيض ، وفى يدها قلم من الرصاص اسرعت بإخفائه عند دخولى ، وهى تشعر بذنبها .. وعندئذ بادرتها قائلة :

ـ انك لن تجدى من يحمل هذه الرسالة يا كاثرين ، لو استطعت كتابتها .. ولكنى الآن سوف اطفىء الشمعة وادعك فى الظلام ..

وعندما مددت يدى بقصبة الإطفاء لأخمد ضوء الشمعة

المطلقة ، تلقيت لطمة شديدة على يدى ، وسمعتها تزمجر فى سخط « أيتها الشريرة ! » .. ولكنى لم ألق إلى الأمر بالا ، وغادرت الحجرة فى سكون .. وعندئذ اوصدت المزلاج فى عنف شديد ، وقد تملكتها نوبة من نوبات النزق والمشاكسة الملوفة منها ..

ومع ذلك فقد اتممت رسالتها وبعثت بها إلى المرسل إليه مع غلام لبان كان يحضر من القرية إلى « الجرانج » .. ولكنى لم أعلم ذلك إلا بعد انقضاء بعض الوقت .. فقد مرت الأسابيع ، واستعادت كائى مرحها وانشراحها ، وإن كانت قد غدت مولعة ، إلى حد عجيب بالتسلل إلى الاركان والانفراد بنفسها .. وكنت إذا اقتربت منها فجاة ، وهى مستغرقة فى القراءة ، أجدها تجفل وتضم الكتاب إلى صدرها كأنما تحاول إخفاءه ، وغالبا ما كنت المح اطراف اوراق منفصلة تطل من بين صفحات الكتاب .. بل لقد اتخذت لنفسها عادة جديدة ، وهى التبكير فى مغادرة حجرتها والنزول إلى المطبخ حيث تظل تحوم حوله كأنما تنتظر وصول شىء لا ادرى كنهه ..

وكان لها فى إحدى خزائن المكتبة درج صغير تظل تعبث بمحتوياته ساعات طويلة وتحرص كل الحرص على اخذ مفتاحه معها كلما انصرفت عنه .. فحدث ذات يوم ، بينما كانت منهمكة فى التنقيب فى درجها ، أن حانت منى نظرة

إلى الدرج ، فإذا بلعبها التى كانت تملؤه قد اختفت وحلت محلها بضعة من الأوراق المطوية .. فثار فضولى ، بل وشكوكى ، وعولت على أن ألقى نظرة على كنوزها الخفية .. وهكذا ما كادت هى والسيد يأويان إلى حجرتيهما ذات ليلة ، حتى رحت أبحث بين مفاتيحى حتى وجدت منها واحدا يفتح قفل ذلك الدرج ، ففتحته وافرغت محتوياته جميعا فى مبدعتى ، ثم اخذتها إلى حجرتى لافحصها على مهل ، وفى مأمن من المفاجأة .. ومع أننى كنت ارتاب فى الأمر إلى حد ما ، فقد كانت دهشتى بالغة إذ تبينت فى تلك القصاصات مجموعة من الرسائل ـ لابد انها كانت يومية تقريبا ـ من لينتون هيثكليف ، كان معظمها ردودا على رسائل بعثت بها إليه .. وكانت الرسائل الأولى متضببة يبدو فيها التعثر ، ولكنها ما لبثت أن تحولت تدريجيا إلى رسائل غرام غزيرة العاطفة ، مليئة بالسذاجة التى تبررها سن كاتبها ، وإن كان بعضها ، مع ذلك ، يحوى لمسات رائعة ايقنت انه استعارها من مصدر أوفر خبرة وحذقا ! .. وراعنى أن الفيت بعضها خليطا بالغ الغرابة من الحرارة والصراحة ، يبدأ بالمشاعر القوية وينتهى بالعاطفة المشبوبة ، فى ذلك النوع من الكلمات التى قد يستخدمها طالب حدث فى مناجاة حبيبة روحانية من حوريات السماء ! .. ولست ادرى إن كانت هذه الرسائل قد اشبعت كائى وارضت مشاعرها ،

ولكنها كانت فى نظرى من سقط المتاع ! .. وبعد أن قلبت فيها حتى اكتفيت ، جمعتها فى منديل أخفيته عندى ، ثم عدت فأوصدت الدرج على خواء ..

ونزلت سيدتى الصغيرة مبكرة ، على عادتها ، وأخذت تحوم حول المطبخ ، فرحت أرقبها من طرف خفى حتى رأيتها تذهب إلى الباب ، فى اللحظة التى تقدم فيها غلام صغير معين .. وبينما كانت الخادمة تملأ له قدر اللبن ، رأيت كاثى تدس شيئا فى جيب سترته ، وتلتقط شيئا آخر من الجيب نفسه ، فى حركة سريعة خفية .. فتسللت ودرت حول المنزل إلى الحديقة ، وتربصت للرسول ، الذى راح يدافع فى نضال المستميت عن وديعته ، حتى انسكب اللبن على الأرض اثناء صراعه معى ، ولكنى افلحت اخيرا فى انتزاع الرسالة منه ، وانذرته بسوء العاقبة إذا لم يمض إلى منزله قدما لا يلوى على شىء .. ثم انزويت بجوار الجدار ورحت اقرأ رسالة مس كاثى الغرامية فى لهفان ، فوجدتها أشد بساطة واعظم بلاغة من رسائل ابن عمتها .. كانت رسالة رائعة ، والحق يقال ، على رغم الحماقة التى كانت تنضح بها .. فهززت رأسى وكررت عائدة إلى المنزل أقلب وجوه الراى فى هذا الأمر ..

وكان اليوم مطيرا ، فلم تستطع كاثى القيام بنزهتها المعتادة

فى البستان .. وهكذا ما كادت تفرغ من دروس الصباح ، حتى لجأت إلى الدرج المعهود تنشد فيه تسليتها .. وكان أبوها جالسا إلى جوار المائدة منهمكا فى القراءة ، أما أنا فقد تعمدت الاشتغال برتق أهداب ستائر النافذة ، ورحت أرقب حركاتها بعين لا تغفل ..

وما من طائر عاد إلى عشه ليجده خاويا وقد عاثت فيه يد عدو اثيم ، بعد أن كان قد تركه مليئا بأفراخ صغار تشيع فيه البهجة بزقزقتها الصداحة ، بمستطيع أن يعبر عن اليأس القاتل والحزن المرير ، فى صرخاته وخفقات أجنحته ، بأكثر مما فعلت كاثى بتلك الشهقة الواحدة التى انطلقت من صدرها ، وذلك التحول الفجائى الذى اعترى أساريرها السعيدة فبدلها تبديلا هائلا مروعا ..

فرفع مستر لينتون رأسه وهتف بها قائلا :

ـ ماذا حدث يا حبيبتى ؟ .. هل جرحت نفسك ؟ ..

فتحققت من لهجته ونظرته انه لم يكن مكتشف ذخيرتها ، فقالت لاهثة :

ـ كلا يا أبى .. لا شىء .. ايلين ! .. ايلين ! .. تعالى معى إلى الطابق العلوى فإنى مريضة !

فلبيت دعوتها وصحبتها إلى خارج المكتبة ، فما كدنا نبلغ البهو العلوى وتوصد الباب خلفنا حتى هوت على ركبتيها ، وهتفت قائلة :

ـ أواه يا ايلين ! .. انت التى اخذتها !.. آه .. رديها إلى ، ولن افعل ذلك مرة اخرى .. لن افعل ذلك ابدا .. ولكن لا تخبرى ابى .. انك لم تخبرى ابى يا ايلين ؟ .. قولى انك لم تخبريه بالأمر ؟ .. لقد كنت مفرطة فى الحماقة، ولكنى لن افعل ذلك بعد الآن قط !

فخاطبتها فى رصانة وحزم وطلبت إليها أن تنهض قائمة ، ثم قلت :

ـ إذن فقد مضيت فى هذا الأمر شأوا بعيدا فى الخفاء ، كما يبدو الآن يا مس كاثرين ! .. لقد كان الاجدر بك ان تخجلى منها ، فلا تطلبيها ثانية ! .. غيالها من حزمة لطيفة من التفاهات تلك التى تقضين ساعات فراغك فى دراستها وحفظها !.. ولماذا ؟.. إنها خليقة بأن تطبع وتنشر !.. وماذا تحسبين السيد يرى فيها عندما انثرها تحت ناظريه ؟ .. إننى لم اطلعه عليها بعد ، ولكنى لا اخالك تظنين لحظة اننى سوف احفظ اسرارك المضحكة هذه ! .. يا للعار ! .. لابد انك انت التى خطوت الخطوة الأولى فى تبادل هذه

السخافات ، فانى موقنة من ان الفتى ليس خليقا بالتفكير فى مبادلتك بها !

فراحت تنشج بالبكاء وقد اسحق قلبها ، وهى تقول :

ـ إننى لم افعل .. لم افعل شيئا من ذلك .. ولم افكر يوما واحدا فى حبه قبل ان ..

فقاطعتها صائحة بكل ما وسعنى من الاستنكار والازدراء :

ـ حبه ؟ .. ما شاء الله ! .. اتقولين « حبه » ؟ .. وهل سمع احد بشىء كهذا ؟.. ان فى وسعى ان اجاريك فاتحدث عن حب الطحان الذى يحضر مرة كل عام ليشترى منا الغلال! .. ما اجمله من حب ، حقا ! .. انك لم تقضى من حياتك فى المرتين اللتين رايت فيهما لينتون اكثر من اربع ساعات ! .. فكيف تتكلمين عن الحب إذن ؟ .. هذه هى تفاهاتك الصبيانية ، وسوف اذهب بها إلى المكتبة ، وسارى ما الذى يقوله ابوك عن مثل هذا الحب !

فوثبت على يدى لتنتزع منى كنزها الثمين ، ولكنى رفعته إلى ما فوق راسى ، وعندئذ بدات فى فيض من التوسلات التى انطلقت من فمها فى حرارة ولهفة ، راجية منى ان احرق الرسائل او افعل بها اى شىء إلا ان اطلع اباها عليها .. وإذ كنت فى الحقيقة اميل إلى زجرها وتعنيفها بمثل ميلى إلى الضحك منها (لاننى كنت اقدر ان الأمر كله لا يعدو نزق الفتيات الصغار وغرورهن) فقد تظاهرت بالتفكير فى الأمر برهة ، ثم سالتها قائلة :

ـ إذا رضيت بحرقها ، فهل تعديننى وعدا صادقا بالا تبعثى إليه أو تتلقى منه رسائل أو كتبا ـ لاننى أرى انك قد أرسلت إليه بعض الكتب ـ أو خصلات شعر أو خواتم أو لعبا ؟ ..

فصاحت كاثرين وقد طغت الكبرياء على خجلها :

ـ إننا لا نتبادل اللعب !

ـ أو اى شىء آخر يا سيدتى العزيزة إذن .. وسوف اذهب إلى ايبك الآن ما لم تبذلى لى هذا الوعد نوا ..

فهتفت قائلة وهى تتشبث بثوبى :

ـ إننى اعدك يا ايلين .. فهيا ضعيها فى النار .. هيا .. هيا ..

ولكنى عندما شرعت فى افساح مكان بين قطع الفحم بمحراك النار ، كانت التضحية اكثر من ان تطيق الفتاة احتمال آلامها ، فراحت تتوسل إلى بان ابقى على واحدة او اثنتين من الرسائل ، قائلة وقد تمزق قلبها :

ـ واحدة او اثنتين فقط يا ايلين ، من أجل خاطر لينتون !

ولكنى مضيت فى مهمتى الأليمة ، ففتحت ركن المنديل وبدأت اسقط الرسائل فى النار واحدة بعد الاخرى ، والسنة اللهب تعلو فى المدفأة اتواسا ..

فصرخت كاثرين ودفعت يدها وسط النيران فاخرجت بعض الأوراق التى لم تجهز النار عليها واحترقت اطرافها فحسب ، غير مبالية بما يصيب اصابعها من تحريق ، وهى تصيح بى :

ـ سوف احتفظ بواحدة ايتها القاسية الشريرة !

فاعدت الرسائل الباقية فى يدى إلى المنديل ، وهممت بان اخطو نحو الباب قائلة :

ـ حسنا جدا .. ما زال لدى ما اريه لأبيك ..

عندئذ افرغت فى الموقد ما كانت تطوى عليه يدها من اوراق مسودة الأطراف ، وراحت تستحثنى على إنهاء هذه المذبحة سريعا .. فلما فرغت من هذه المهمة جعلت احرك الرماد لأجهز عليه .. ثم غطيته بملء مجرفة من كتل الفحم .. أما هى فقد انسحبت إلى حجرتها الخاصة وقد اطبقت شفتيها دون ان تنبس بكلمة واحدة ، وبدا عليها الشعور بما نالها من إهانة فادحة ..

ونزلت لاخبر السيد أن ما اصاب الآنسة من توعك قد زال تماما ، وانى رايت من الخير لها ان ترقد فى فراشها قليلا ..

ولم تنزل للغداء .. ولكنها ظهرت ثانية وقت تناول الشاى ، فإذا بها شديدة الامتقاع وقد احمرت جفونها .. إلا انها كانت محتفظة بهدوئها الظاهرى إلى حد يثير الإعجاب ..

وفى صباح اليوم التالى تولت اجابة على الرسالة برقعة صغيرة قلت فيها :

« المرجو من السيد هيتكليف الا يبعث بشىء من الرسائل إلى مس لينتون بعد الآن ، لانها لن تتسلمها .. » .

ومن ذلك الوقت اصبح صبى اللبان ياتى بجيوب خاوية ..

* * *

الفصل الثانى والعشرون

مر عيد القديس ميخائيل ، واخذ الصيف يستحث خطاه راحلا ، والخريف يقبل مبكرا .. ولكن الحصاد كان متأخرا فى ذلك العام ، وبقيت قلة من حقولنا لم يتم حصادها بعد .. وكان مستر لينتون وابنته يخرجان كثيرا للتجول بين عمال الحصاد ، فكانا يبقيان معهم ، فى مراحل الحصاد الأخيرة ، حتى الغسق .. وكان الجو فى تلك الأمسيات رطبا شديد البرودة ، حتى أصيب سيدى ببرد شديد سكن رئتيه وأبى الرحيل عنهما ، كضيف ثقيل ، واضطره إلى ملازمة الدار طيلة الشتاء لم يبرحها خلاله قط ..

أما كاثى المسكينة ، التى تملك الروع قلبها من مغامرتها الصغيرة ، فقد ازدادت حزنا ووجوما منذ ان اضطرت إلى التخلى عن الاستمرار فيها ، فكان ابوها يلح عليها فى الإقلال من القراءة ، والإكثار من الخروج للنزهة .. وإذ كانت قد حرمت رفقته ، فقد وجدت لزاما على أن اعوضها عن هذا الحرمان ـ على قدر الإمكان ـ بصحبتى لها .. ولكن هيهات ان اسد الفراغ الذى خلفه ، فلم يكن فى وسعى ان افرغ من مشاغلى اليومية الكثيرة إلا ساعتين او ثلاثا اكرسها لمرافقتها .. ومع ذلك كان من الجلى انها كانت أقل ارتياحا إلى رفقتى عنها إلى صحبة أبيها ..

وبعد ظهر يوم من أواخر اكتوبر أو أوائل نوفمبر ـ وكان يوما مطيرا ، للعشب فيه وللممرات حفيف ووسوسة ،

مبعثها أوراق الشجر الجافة الندية ، وللسماء الزرقاء الباردة فيه اقنعة من السحب الكثيفة كانها سفن عظيمة تشق عباب السماء مسعدة من الأفق الغربى ، ومنذرة بحمولة من المطر الغزير ـ رجوت سيدتى الصغيرة أن تعدل عن جولتها ، لتتقى من عطول الأمطار كالسيول ، ولكنها رفضت وأمعنت فى الرفض .. فخرجت معها على مضض ، بعد أن تسربلت بمعطف كبير وحملت مظلتى ، وصحبتها فى السير حتى نهاية الحديقة ، وهى نزهة جافة منكلفة كانت تقوم بها عادة إذا انحرف مزاجها ، وكانت تبدو كذلك كلما اشتدت العلة بمستر ادجار وساءت حاله عن المعتاد .. وما كان ليبوح لنا بذلك قط ، وإنما هو أمر نحدسه ـ كاثى وأنا ـ كلما طال صمته ولاحت الكآبة والانقباض فى اساريره .. ومضت تسير فى خطى حزينة متمهلة ، لا تجرى ولا تقفز كعادتها ، برغم أن الرياح الباردة كانت خليقة بأن تغريها بالعدو والوثب .. وكنت أرمقها من طرف خفى ، فالاحظ بين الحين والآخر أنها ترفع يدها لتمسح شيئا عن وجنتها .. فرحت اتطلع حولى باحثة عن شىء اغريها به لأسرى عنها واخرجها من لجة تفكيرها الحزين .. وكان على احد جانبى الطريق مرتفع وعر تناثرت فيه بضعة من اشجار البندق والبلوط الضامرة وقد تعرى شطر من جذورها ، واخذت تترنح غير مستقرة فى مواضعها .. وكانت التربة فى ذلك المرتفع من الرخاوة بحيث لم تحتمل اشجار البلوط ، فانحنى معظمها ، تحت دفع الرياح الشديدة ، ومال على الأرض فى وضع افقى .. وكانت مس كاثرين ، فى أيام الصيف ، تجد متعة فى تسلق جذوع

هذه الأشجار ، والجلوس بين أغصانها ، تتارجح على ارتفاع عشرين قدما من الأرض .. وكنت أبتهج كلما رأيت خفتها ورشاقتها ومرحها الصبيانى ولهوها المنبعث عن قلب خال من الهموم ، إلا أننى ، فى الوقت نفسه ، كنت أجد من الأوفق أن أوجه لها اللوم كلما ضبطتها على هذا الارتفاع ، فكنت أفعل ذلك فى لهجة تدرك منها انه ليس ثمة ما يضطرها إلى الهبوط ! .. كانت تظل منذ تناول الغداء حتى ساعة الشاى مضطجعة فى أرجوحتها التى يهزها النسيم ، لا تفعل شيئا سوى الترنم بالأغانى القديمة ـ أهازيج الطفولة التى كنت أهدهدها بها ـ أو مراقبة الطيور فى أعشاشها ومشاهدة الأب والأم صاحبى العش وهما يطعمان أفراخهما ويغرياتها على الطيران ، أو تستكن فى استرخاء ، مطبقة الجفون ، يتداولها التفكير وأحلام اليقظة ، ملأى بسعادة تقصر الكلمات عن وصفها ..

وأشرت إلى نجوة صغيرة بين جذور شجرة ملتوية ، وصحت قائلة :

ـ انظرى يا آنسة ! .. إن الشتاء لم يحل هنا بعد .. فهذه زهرة صغيرة فوق المرتفع هناك ، هى آخر براعم زهور الليلك التى كانت تكسو السفح كله فى شهر يوليو بغلالة زرقاء رائعة الجمال .. فهل لك أن تتسلقى الهضبة ، وتقطفيها ، لتريها لأبيك ؟

فراحت كاثى تحدق النظر طويلا فى الزهرة الوحيدة التى كانت تهتز فى مثواها الأرضى ، قبل أن تجيب أخيرا :

ـ كلا .. لن أمسها ؟ .. ولكنها تبدو حزينة مكتئبة .. ألا ترينها كذلك يا ايلين ؟

ـ نعم .. فهى أشبه بك طهارة ونحولا .. أما ترين وجنتيك الشاحبتين كأنهما خاليتان من الدماء ؟ .. هاتى يدك فى يدى ودعينا نجر معا ، فإنك اليوم من الاعياء بحيث أحسبنى قادرة على مجاراتك !

فلم تزد على أن قالت : كلا ..

واستمرت تمشى على مهل ، وهى تتلكأ هنا وهناك لتتأمل قطعة من الطحلب ، أو خصلة من العشب الجاف ، أو ثمرة من الفطر يشع لونها البرتقالى الفاتح بين أكوام أوراق الشجر الجافة السمراء .. وكانت ترفع يدها ، بين الحين والآخر ، إلى وجهها ، وهى تشيح به بعيدا عن انظارى ..

فدنوت منها ، وأحطت كتفها بساعدى ، وسألتها قائلة :

كاثرين .. لماذا تبكين يا حبيبتى ؟ .. ما ينبغى لك أن تبكى لأن أباك أصيب بالبرد .. واحمدى الله انه لم يمرض بما هو أسوأ من ذلك ..

عندئذ أطلقت لدموعها العنان ، ولم تعد تعمد إلى إخفائها عنى ، وقد اختنق صوتها وانفاسها بنشيج متتابع ، وهى تجيبنى :

ـ آه !.. سوف يصبح مرضه أسوأ بكثير .. وماذا ترينى فاعلة إذا ذهب أبى ، وذهبت أنت ، وخلفتمانى وحدى فى

العالم ؟.. إننى لا استطيع ان انسى كلماتك يا ايلين ، فانها لا تكف عن الرنين فى اذنى .. فكيف تتبدل حياتى ، وكم يصبح العالم موحشا مخيفا امامى ، عندما يحين أجل أبى ، وتدركك المنية انت الأخرى !

فاجبتها :

ـ لكل اجل كتاب ! .. ومن يدرى ، فقد تموتين قبلنا ! .. من الخطأ ان يتعجل المرء السوء قبل وقوعه ! .. فدعينا نرجو ان تنقضى اعوام واعوام قبل ان يذهب احدنا .. إن السيد ما زال شابا ، وانا لم اتجاوز الخامسة والاربعين وما زلت قوية سليمة ، كما ان والدتى عاشت حتى الثمانين ، وظلت محتفظة بمرحها ونشاطها إلى النهاية ! .. وإذا فرضنا ان مستر لينتون عاش حتى يبلغ الستين من عمره ، فإن الاعوام الباقية اكثر من التى انقضت من عمرك يا آنسة ، ومن السخف ان تحزنى على مصيبة لن تحل إلا بعد عشرين عاما او تزيد !

فتطلعت إلى فى نظرات يمشى فيها الأمل على استحياء ، كأنما تنشد فى كلماتى المزيد من الطمانينة والعزاء ، وغمغمت تقول :

ـ ولكن عمتى ايزابيلا كانت اصغر من أبى ..

ـ إن عمتك ايزابيلا لم تجد من يعنى بتمريضها مثلك ومثلى .. ولم تلق من اسباب السعادة ، مثلما يلقى السيد ، كما لم يكن لديها ما يثير فيها حب الحياة والرغبة فى العيش

.. إن كل ما يلزمك ، يا عزيزتى ، هو ان تحسنى رعاية ابيك ، وان تشيعى المرح والبهجة فى نفسه بأن يراك دائما مرحة مبتهجة ، وان تتجنبى إثارة القلق فى نفسه من اية ناحية .. فاذكرى ذلك ياكاثى ولا تنسيه ! .. ولا اخفى عنك انك قد تقطنيه بطيشك واندفاعك فى عاطفة حمقاء خيالية نحو ابن شخص يسره أن يرى اباك موسدا فى قبره ، أو إذا اظهرت له انك تذوبين حزنا واسى بسبب فراق راى من صالحك ان يفرضه عليك ..

فاجابت قائلة :

ـ إننى لا احزن لشىء على وجه الأرض إلا لمرض ابى .. ولا ابالى باى شىء بجانب أبى .. ولن افعل شيئا البتة ـ مطلقا ـ لن افعل شيئا او اقول كلمة واحدة تضايقه ، ما دمت محتفظة بجميع حواسى .. إننى احبه اكثر من نفسى يا ايلين .. وقد عرفت ذلك مما افعله كل ليلة من الصلاة والدعاء بأن أعيش بعده ، لأننى اوثر ان اتعذب واشقى لفقده ، على ان يشقى ويتعذب إذا توفانى الله قبله .. افلا يدل ذلك على اننى احبه اكثر من حبى لنفسى !

ـ ما اجمل هذه الكلمات ! .. ولكن الأعمال ايضا يجب ان تثبت شعورك هذا .. وارجو ان تذكرى ، عندما تتحسن صحته ، تلك القرارات التى اتخذتها فى ساعات الخوف والتوجس ..

وكنا ، أثناء حديثنا ، قد اقتربنا من باب موصد يؤدى إلى الطريق خارج الحديقة .. وكانت السيدة الشابة قد استعادت مرحها وإشراقها ثانية ، فتسلقت الجدار وجلست على قمة السور ، وأخذت تميل إلى الخارج لتلتقط بعض الثمار النابتة وسط زهور أشجار الورد البرى القرمزية ، التى تظلل جانب الطريق .. كانت الثمار السفلى قد اختفت ، أما العليا فلم يكن يستطيع الاقتراب منها ، غير الطيور وحدها ، إلا من يتخذ موضع كاثى الحالى .. وبينما كانت تميل لتجذبها نحوها سقطت قبعتها فى الطريق ، فاقترحت أن تهبط زاحفة من فوق السور لتستعيدها ، نظرا لأن الباب كان موصدا .. ورجوتها أن تكون حذرة حتى لا تقع ، وسرعان ما اختفت عن الأنظار فى خفة وسرعة .. ولكن العودة لم تكن بمثل هذه السهولة ، إذ كان الجدار أملس مصقولا ، جيد الطلاء ، خلوا من أى نتوء أو متكأ ، كما أن فروع شجيرات الورد الرخوة ، وأغصان شجيرات العليق الشاردة ، كانت لا تقوى على أداء أية معونة عند تسلق الجدار .. أما أنا فلم انتبه إلى ذلك ، لغفلتى وحمقى ، حتى سمعتها تضحك قائلة :

ـ سوف تضطرين إلى إحضار المفتاح يا أيلين ، أو اضطر إلى الانطلاق عدوا حتى كوخ الحارس .. فليس فى استطاعتى تسلق السور من هنا ..

ـ ابقى حيث أنت .. أن فى جيبى ربطة مفاتيح لعل فيها ما يفتح هذا الباب ، وإلا ذهبت لإحضار المفتاح ..

وأخذت كاثرين تتسلى بالغناء والرقص أمام الباب ريثما مضيت أجرب المفاتيح واحدا بعد الآخر ، ولكنى بلغت آخرها دون أن أجد بينها ما يطابق قفل الباب .. فأعدت عليها رغبتى بأن تبقى مكانها ، وكنت على وشك أن أهرع نحو الدار بأسرع ما فى طاقتى عندما بلغ مسامعى صوت جعلنى أجمد فى مكانى ، وكان ذلك وقع حوافر جواد يقترب مسرعا ..

وتوقفت كاثى عن الرقص كذلك ، فسألتها بصوت خفيض :

ـ من هذا ؟

وإذا برفيقتى تهمس فى لهفة بالغة :

ـ أيلين .. ليتك تستطيعين فتح الباب سريعا !

عندئذ انبعث صوت عميق (هو صوت راكب الجواد) يصيح قائلا :

ـ مهلا يا مس لينتون ! .. شد ما يسرنى أن القاك .. ولكن لا تتعجلى الدخول ، فإن هناك إيضاحا أود أن اسألك عنه وتجيبينى عليه ..

فأجابته قائلة :

ـ إنى لن أخاطبك يا مستر هيتكليف ، فإن أبى يقول إنك رجل شرير تمقته وتمقتنى معا ! .. وقد أيدت أيلين ذلك ..

فقال هيثكليف (وكان هو نفسه القادم) :

ـ لا شأن لذلك بالغرض الذى احدثك من اجله .. إننى لا امقت ابنى ، على الاقل .. والامر الذى اود ان استرعى انتباهك إليه إنما يخصه هو .. نعم .. يحق لك ان يحمر وجهك خجلا ! .. الم تكونى ، منذ شهرين او ثلاثة ، تكتبين إلى لينتون كل يوم ؟.. اكنت تتخذين من الحب ملهاة ومسلاة إذن ؟.. إنكما ، كلاكما ، تستحقان الجلد بالسياط جزاء وفاقا، وخصوصا انت ، لانك اكبر سنا ، وابلد شعورا ، كما وضح فيما بعد ! .. ولكنى حصلت على خطاباتك ، وسوف ابعث بها إلى ابيك إذا لم تعيرى كلامى اذنا واعية ، او ابديت استهانة بما اقول .. إننى احسبك مللت هذه اللعبة ، فانصرفت عنها .. اليس كذلك ؟.. حسنا .. إنك عندما طرحتها عنك ، طرحت لينتون معها فى هوة من اليأس والقنوط ! .. لقد كان جادا ، لا لاهيا ولا عابثا ، فأحبك حقا .. والحقيقة الواقعة ، كوجودى على قيد الحياة امامك ، انه على وشك الموت من اجلك ، وقد سحق قلبه ـ حقا لا مجازا ـ غدرك وتقلب اهوائك .. ومع أن هيرتون ظل طوال الاسابيع الستة الاخيرة يمازحه ويلاعبه ليسرى عنه ، وعلى الرغم من أننى اتخذت نحوه تدابير اكثر صرامة ، وحاولت ان اخيفه واروعه ليدع حمقه وغفلته ، فإنه يزداد سوءا يوما بعد يوم ، وسوف

يغيبه الثرى قبل الصيف المقبل ، إلا إذا انقذته واعدت إليه الحياة !

فصحت من وراء الباب قائلة :

ـ كيف يمكن لك ان تكذب على الطفلة المسكينة بهذه الجراة ؟ .. امض لشانك بالله عليك ! .. فلست ادرى كيف تختلق عن عمد هذه الترهات الخسيسة ! .. سوف احطم القفل بحجر ، يا مس كاثى ، فلا تصدقى كلمة من هذا الهراء الخبيث .. وقد ادركت بنفسك أن من المستحيل ان يموت احد غراما بشخص غريب عنه ..

فغمغم الشقى الذى انكشف امره ، قائلا :

ـ لم اكن اعلم ان هناك جواسيس يسترقون السمع ! .. اهذه انت يا مسز دين العظيمة ؟ .. إننى احبك ، ولكنى لا احب نفاقك يا ذات الوجهين !

ثم استطرد يقول بصوت عال :

ـ وكيف يمكن لك « انت » ان تكذبى على «الطفلة المسكينة» بهذه الجراة ، فتؤكدى لها اننى ابغضها ، وتخترعى لها من قصص الغيلان ما يخيفها منى وينفرها من بيتى ؟ .. اسمعى يا بنيتى العزيزة ، يا كاثرين لينتون ، وهذا الاسم بالذات يبعث الدماء حارة فى عروقى) سوف اغيب عن منزلى طوال

www.liilas.com
KAYAHEEM

هذا الأسبوع .. فاذهبى لترى بنفسك اننى لم اخبرك إلا صدقا .. اذهبى يا عزيزتى ! .. بل عليك أن تتخيلى والدك فى مكانى ، ولينتون فى مكانك ، ثم فكرى بعد ذلك كيف تكون نظرتك إلى حبيبك الجحود ، إذا ابى ان يخطو خطوة واحدة لمواساتك ، بينما ابوك نفسه يرجوه ويستعطفه ! .. ولا تقعى فى هذا الخطأ نفسه لا لشىء سوى الغباء والحمق .. إننى اقسم لك بخلاص روحى ، إنه يسير نحو القبر سيرا حثيثا ، وليس من يستطيع إنقاذه سواك ..

وتهاوى القفل تحت طرقاتى فاندفعت خارجة ، بينما كان هيثكليف يتابع كلامه لها ، وهو يحدجنى بنظرة صارمة ، قائلا:

ـ اقسم لك إن لينتون مشرف على الموت حقا ، وإن الحزن والحسرة سوف يعجلان بنهايته المحتومة ! .. وانت يا نللى ، إذا كنت مصرة على منعها من الذهاب ، فامضى إلى هناك بنفسك لتريه بعينيك .. إننى لن ارجع من رحلتى إلا فى مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل ، ولا احسب أن سيدك نفسه يطاوعه قلبه على منعها من زيارة ابن عمتها !

فقلت لكاثرين : « تعالى معى » .

وكنت قد امسكت بذراعها وانا لا اكاد اجرها إلى الداخل جرا ، بعد أن رأيتها تتلكأ مترددة ، وتتطلع إلى وجه محدثها بعينين يملؤهما القلق والانشغال ، بينما كانت اساريره

الجامدة من الصرامة بحيث تخفى خداعه ولؤمه .. وما لبث أن دفع بجواده إلى جانبها ، ومال فوقه نحوها ، قائلا :

ـ إننى اعترف لك يا مس كاثرين بأن صبرى قد نفد من لينتون وحالته ، كما ضاق به هيرتون وجوزيف ذرعا ، واعترف لك ايضا بأنه يعيش فى وسط سمته الفظاظة والخشونة .. وانه يذوى سريعا لحرمانه من العطف والحب .. لذلك فإن كلمة رقيقة منك سوف تكون خير دواء له .. فلا تلقى بالا إلى تحذيرات مستر دين القاسية ، بل كونى رفيقة كريمة ، واسعى إلى رؤيته .. فإنك تتراءين له فى احلامه بالليل والنهار ، وهو لا يتخلى عن عقيدته بأنك تكرهينه، بعد أن امتنعت عن زيارته والكتابة إليه ..

فأغلقت الباب ودحرجت وراءه حجرا ليدعمه بعد أن تحطم قفله ، ثم نشرت مظلتى وجذبت وديعتى تحتها ، إذ بدا المطر يتساقط علينا من بين فروع الاشجار الشجية الأنين ، نذيرة لنا بألا نتوانى فى الخارج حتى لا تفاجئنا سيوله المنهمرة .. وكان إسراعنا وظهفنا على العودة للدار بمنعاننا من التعليق على هذا اللقاء غير المتوقع مع هيثكليف ، ولكننى تكهنت ، بإلهام من غريزتى ، بأن قلب كاثرين كان ملبدا بغيوم الظلمات الكثيفة .. وكان الحزن والأسى يطبعان اساريرها بطابع غريب

بدلها تبديلا ، حتى لقد انكرتها .. وكان من الجلى انها صدقت كل كلمة وكل حرف مما سمعته ..

ووجدنا السيد قد اوى إلى حجرته قبل عودتنا ، تسللت كاتى إليها لتسأل عن حالته ، فالفته مستغرقا فى النوم ، وعندئذ عادت لتطلب منى ان اجلس معها فى المكتبة .. وتناولنا الشاى معا ، فلما فرغنا منه استلقت على البساط ، وطلبت منى الا اتكلم ، زاعمة انها متعبة مرهقة .. فاخذت كتابا وتظاهرت بالقراءة .. وما أن حسبتنى مستغرقة فيها ، حتى بدات بكاءها الصامت الذى يبدو انه اصبح الآن مسلاتها المفضلة ! .. وتركتها تسرى عن نفسها برهة ، ثم اندفعت فى عتاب طويل ، محاولة تسفيه اقوال مستر هيثكليف ومزاعمه عن ابنه ، والسخرية منها ، كأنما حسبت انها ستوافقنى .. ولكن واأسفاه !.. فلم تكن لى تلك المهارة وذلاقة اللسان الخليقة بأن تزيل عن نفسها الأثر الذى احدثته روايته .. وكان ذلك ما يرمى إليه تماما ..

واجابتنى اخيرا :

ـ ربما كنت على حق يا نللى ، ولكنى لن احس بالراحة قط حتى اعرف الحقيقة .... ولا بد لى من ان اخبر لينتون بانه لم يكن لى ذنب فى امتناعى عن الكتابة إليه ، وان اقنعه بانى لن اتغير عن عهده قط ..

فما جدوى الغضب والاحتجاج إزاء سذاجتها الحمقاء ، وسلامة نيتها البلهاء ؟ ..

لقد افترقنا تلك الليلة على غير وفاق .. ولكن اليوم التالى شهدنى على الطريق إلى « مرتفعات ويذرنج » ، مهرولة بجانب مهر سيدتى العنيدة .. فلم يكن فى وسعى أن أطيق رؤيتها حزينة ، وان احتمل مرأى وجهها الشاحب وعينيها المقروحتين بالبكاء .. ورضخت لرغبتها ، وقد تراوحنى أمل واه بأن يثبت لها لينتون نفسه ، عند استقباله لنا ، مبلغ ما فى الرواية من كذب وبهتان ..

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^
مع تحيات منتدى ليلاس